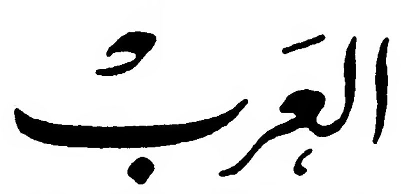
Mngool.com



مجلة شهرية تعنى بتاريخ العرب وآدابهم وتراثهم الفكري
أسسها : حمد الجاسر سنة ١٣٨٦هـ / ١٩٦٦م
صاحب الامتياز المسؤول: معن بن حمد الجاسر

ج٧و٨ س٣٨ محرم وصفر سنة ١٤٢٤ هـ - آذار - نيسان (مارس - أبريل) سنة ٢٠٠٣م

رئيس التحرير

أ. د. أحمد بن محمد الضبيب

أعضاء هيئة التحرير

أ. د. عبد العزيز بن ناصر المانع

أ. د. عبد العزيز بن صالح الهلابي

أ. د. عبد الله بن صالح العثيمين

العنوان

حي الورود، شارع حمد الجاسر، هاتف ٤٦٠٤٦٦٤(٠٠٩٦٦١) لاقط ٤١٩٤٥٠٣
ص.ب ١٣٧ الرياض ١١٤١١ ، المملكة العربية السعودية .

الصفحة الالكترونية: WWW. HAMADALJASSER.COM

ضوابط النشر في المجلة

١- أن يكون البحث داخلاً ضمن اهتمامات المجلة وهي الموضوعات المتعلقة بتاريخ العرب ، وآدابهم ، ولغتهم ، وتراثهم الفكري .

٢ ـ ألا يكون البحث مقدمًا للنشر في مجلة أخرى ، وأن يكون في نسخته الأصلية .

٣ ـ أن يتأكد الكاتب من سلامة اللغة ، وحسن الترقيم والتوثيق ، وضبط الألفاظ غير المألوفة بالشكل الصحيح .

٤ ـ أن يتسم النقد بالأسلوب العلمي الخالي من الإساءة إلى شخصية المؤلف أو الباحث .

٥ ـ لا تعاد البحوث إلى أصحابها سواء أنشرت أم لم تنشر .

٦ ـ ترتيب البحوث داخل المجلة يخضع لاعتبارات فنية لاعلاقة لها بمكانة الكاتب .

٧ ـ الموضوعات التي تنشر في المجلة تعبر عن آراء كاتبيها وليس بالضرورة عن رأي المجلة .

٨ ـ المكاتبات توجه إلى رئيس التحرير .

الاشتراك السنوي :

١٠٠ ريال للأفراد، و٢٠٠ ريال لغيرهم

ثمن الجزء ١٧ ريالاً

الإعلانات :

يتفق عليها مع الإدارة

مؤثرات الزمان والمكان في أدب أسامة بن منقذ

بقلم: د. راتب سكر

مقدمة:

تتنوع صور الزمان والمكان في أدب أسامة بن منقذ الكناني، محملة بما يفوح من دلالات في طبيعة حياته المديدة الغنية بأحداثها. إن عمق علاقة أسامة بالأمكنة والأزمنة ترك في أدبه مؤثرات حاسمة، فجاء شِعره ونثره وثيقة تاريخية تحتل فيها صورة ذات الكاتب في تفاعلها مع محيطيها الزماني والمكاني مكانة بارزة. وقد جاء هذا التكوين المتميز في أدب أسامة نتيجة أساسية لعاملين رئيسين، يتعلق أولهما بالأدوار الخطيرة التي حمل مهمة أدائها على منكبيه، معمقًا صيغة اشتراكه في الحياة السياسية والاجتماعية للبيئات التي يتنقل فيها، ويرتبط ثانيهما بفهم أسامة لرسالة أدبه ووظيفته فهمًا يقرّب المسافة بين الأدب والحياة، ويجعل منه مرآة ضاجة بأحداثها العاصفة ومنعكساها الكبيرة.

تفاعل أسامة مع الأمكنة والأزمنة تفاعلاً خصبًا ثرًا، فترك في لوحاها بصمات واضحة، وغط في معين دواها ريشة إبداعه الأدبي، فجاء أنموذجًا موائمًا للدراسة والبحث في القضايا الأدبية التي تثير أسئلتها المشروعة حول الهوية الثقافية في إطاريها الجغرافي والتاريخي، ولعل السؤال التالي الذي يثيره د. شكري محمد عياد في كتابه: "**المذاهب الأدبية والنقدية عند العرب والغربيين**"

يعبّر عما تقدم بشكل محدد مفيد في تناول الظاهرة الأدبية، يقول: "لماذا وجدت هذه المذاهب في تلك المنطقة من العالم، وهذه الحقبة من التاريخ... لماذا تتمايز صورة المذهب الواحد في أنحاء مختلفة من تلك المنطقة ذاتها؟"(١).

إذا كانت الظاهرة الأدبية معنية بأمكنتها وأزمنها كما يوضح التساؤل السابق للدكتور عياد، فإن أدب أسامة يقدّم شهادات مناسبة في هذا المجال، نظرًا للأداء الرفيع الذي قدّمه أسامة في الحياة والفن من جهة، و لخطورة الأحداث والوقائع التي عاصرها في القرن السادس الهجري من جهة أخرى. ترتبط حياة أسامة بن منقذ بمجموعة من الأمكنة الجغرافية التي تركت في أدبه مؤثرات عميقة حملت الطوابع الثنائية لحركة الزمان بارتباطها بأحداث التاريخ من جهة، وبالسيرة الذاتية للشخصية المعنية من جهة أخرى. ترسم هذه الرؤية المنسوجة من عناصر متداخلة لوحة شاملة تتميز بألوانها سبع مراحل زمانية ومكانية، تفاعل مع معطياتها العامة والخاصة أدب أسامة معبّرًا عن العلاقة الصحيحة التي تربط الأدب بالحياة:

١- المرحلة الأولى: تمتد من ولادته في "شيزر" سنة ٤٨٨هـ حتى رحيله الأول عنها سنة ٥٢٢هـ. ومدتها أربع وثلاثون سنة.

٢- المرحلة الثانية: وتمتد من رحيله الأول عن "شيزر" والتحاقه بعسكر عماد الدين زنكي في "الموصل" سنة ٥٢٢هـ حتى عودته إلى "شيزر" للمشاركة في الدفاع عنها أمام الفرنج سنة ٥٣٢هـ، ومدتها عشر سنوات.

٣- المرحلة الثالثة: وتمتد من رحيله الثاني عن "شيزر" سنة ٥٣٢هـ إلى دمشق وتعاونه مع حاكمها معين الدين أنر، حتى رحيله عن دمشق إلى القاهرة سنة ٥٣٩هـ، ومدتها سبع سنوات.

٤- المرحلة الرابعة: وتمتد من رحيله الأول عن دمشق سنة ٥٣٩هـ إلى القاهرة وتعاونه مع الخليفة الفاطمي الظاهر بأمر الله ووزيره الملك العادل ابن السلار حتى رحيله عن القاهرة سنة ٥٤٩هـ، ومدتها عشر سنوات.

٥- المرحلة الخامسة: وتمتد من رحيله عن القاهرة إلى دمشق سنة ٥٤٩هـ وتعاونه مع الملك العادل نور الدين زنكي حتى رحيله الثاني عن دمشق إلى حصن "كيفا" في ديار بكر على الفرات سنة ٥٥٩هـ، ومدتها عشر سنوات.

٦- المرحلة السادسة: وتمتد من اعتكافه في حصن "كيفا" سنة ٥٥٩هـ حتى عودته إلى دمشق بدعوة من الناصر صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٧٠هـ، ومدتها إحدى عشرة سنة.

٧- المرحلة السابعة: وتمتد من عودته الأخيرة إلى دمشق سنة ٥٧٠هـ حتى وفاته فيها سنة ٥٨٤هـ، ومدتها أربع عشرة سنة.

لا يعني التقسيم المذكور آنفًا أن حياة أسامة كانت رهينة أمكنتها في تلك الأزمنة مشلولة الفعل، غير قادرة على الانتقال والتحرك المرتبط بأنشطة شخصية أو سياسية واجتماعية مختلفة، وهذا ما يفسر لنا وجود أسامة في هذا المكان أو ذاك في مرحلة حياته عبر تفاعلها مع أطرها الجغرافية المتنوعة، ومن ذلك سفر أسامة إلى أرمينيا التي يصف طبيعتها وعادات أهلها في قصيدة من شِعره[٢]، أو سفره إلى ملطية في بلاد الروم، وله في ذلك قصيدة تعبّر عن غربته فيها وتشوّقه إلى أرض الشام[٣].

إن قيام أسامة برحلات شخصية وسفارات سياسية وعسكرية أضافت إلى أدبه طوابع مكانية وزمانية جديرة بالملاحظة.

قسّم أسامة بن منقذ قصائده إلى مقطوعات مراعيًا موضوعاتها وأغراضها الشعرية، "فقد جمع أسامة ديوانه بنفسه، ورتبه على حسب الأغراض الشعرية"(٤)، ووزع تلك المقطوعات في ديوانه الذي حُقّق ونُشر في عصرنا الحديث للمرة الأولى سنة ١٩٥٣م في القاهرة، وقد حافظ محققاه د. أحمد أحمد بدوي وحامد عبدالمجيد على تقسيم أسامة المذكورة.

إن هذا التقسيم لا يحجب عن باصرة القارئ الجاد أهمية تزامن الاطلاع على مقاطع كل قصيدة، على الرغم من توزعها في سياق أقسامها، نظرًا لما يوفره هذا التزامن من شعور المتلقي بوحدة النص من جهة، وتفاعل دلالات الزمان والمكان في بنائه من جهة أخرى. غير أن مثل هذا الاطلاع الضروري على أجزاء كل قصيدة في بنائها الفني الواحد الذي يجمع أجزاءها لا يتعارض مع تقدير الوظائف الفنية لقراءتها مجزّأة حسب موضوعاتها، فثمة قراءتان، لكل منهما أغراض وغايات مختلفة.

وقد كان أسامة رائدًا في مجال تقسيم القصيدة الشعرية حسب تعدد موضوعاتها، تعبّر ريادته عن شعور رهيف بالتطلع إلى وحدة الموضوع في البناء الفني للنص الشعري العربي، وقد نوه في بحوثه النقدية بعمل أسامة هذا، فقال: "إلى هذا كله، نما الشِعر بضرورة وحدة الموضوع في القصيدة. فحين جمع أسامة بن منقذ ديوانه، جزّأ القصيدة الواحدة ذات الموضوعات المتعددة إلى أجزاء، ووضع كل جزء في الباب الذي يناسبه، أي أنه خلق جوًا للقصائد ذات اللون الواحد"(٥). يلاحظ من يتأمل عمل أسامة المشار إليه أنه كتب القصيدة ذات الموضوعات المتعددة، ولكنه اجتهد في تطلعه إلى تقسيم كل قصيدة حسب موضوعاتها، في مرحلة زمنية لاحقة مرتبطة

بازدياد اطلاعه على الأدب والنقد، واجتهاده في إنجاز بحوثه البلاغية والنقدية التي تضمنتها مؤلفاته التي أنجزها بعد تقدمه في العمر.

لا بد من الإشارة إلى اختلاف الدارسين والمؤرخين حول تاريخ تنقلات أسامة التي تحتمل في مباحثهم فروقات زمنية تبدو مناقشتها في سياق هذا البحث غير ذات بال، وهي غالبًا تترافق بدلالات الظن والترجيح كما يتضح من الاطلاع على ما قدّمه حسن عباس في هذا المجال؛ فمن أقواله عن انتقال أسامة إلى حصن كيفا مثلاً، قوله: "نرجح أن يكون قد توجه إلى حصن كيفا في سنة ٥٥٨هـ"[٦]، ومع أن ترجيح الباحث حسن عباس غير بعيد عما ذكره معاصره ابن عساكر (ت ٥٧١هـ) في "التاريخ الكبير" عن لقائه مع أسامة في دمشق في هذه السنة بقوله: "اجتمعت به بدمشق وأنشدني قصائد من شِعره سنة ٥٥٨هـ"[٧]، فإن مناقشة تتوخى التدقيق في تحديد كل تاريخ يحدد تنقل أسامة تبدو جديرة بالاهتمام، ولكنها لا تغير من دلالات الزمان والمكان في أدبه ما دام احتمال الخطأ والصواب فيها مرهونًا ببعض سنة أو سنتين أو ثلاث في أبعد تقدير.

أولاً: المرحلة الأولى:

تركت هذه المرحلة في أدب أسامة بن منقذ مؤثرات حاسمة، تقصر عن مجاراتها كل مؤثرات المراحل اللاحقة مجتمعة، وتعود أبرز مرتكزات ذلك إلى باعثين أساسيين:

أ- طول مدة هذه المرحلة واشتمالها على فترتي الطفولة والشباب، بما تغتنيان به من تلقٍّ للعلم والثقافة، ومشاركة في الحياة الاجتماعية والسياسية والعسكرية وتجلياتها الخطيرة في تلك الحقبة.

ب- خصوصية مثل هذه المرحلة في التكوين النفسي للإنسان عمومًا وللأديب خصوصًا؛ فالأمكنة الأولى التي تدرج فيها خطاه ترسم في خزين الذاكرة محملة بالدلالات الراسخة لحركة الزمان وأفعاله، وأدب أسامة يبدي احتفاء مناسبًا بالتعبير عن الأمكنة المرتبطة بشيزر ومرحلة نشأته فيها، وهذا الاحتفاء ينسجم مع عمل البنية النفسية للأديب في استعادته لمكونات طفولته ونشأته الأولى. يقدّم الناقد الفرنسي المعاصر غاستون باشلار في كتابه **جماليات المكان** بحثًا قيّمًا عن مثل هذه الاستعادة في الإبداع الأدبي، يقول الأديب غالب هلسا، مترجم الكتاب، في تقديمه له: "البيت القديم، بيت الطفولة، هو مكان الألفة، ومركز تكييف الخيال. وعندما نبتعد عنه نظل دائمًا نستعيد ذكراه"(٨).

كانت سنوات طفولة أسامة ونشأته في شيزر غنية بأحداثها، عززت صلته بأمكنتها وبزمان وجوده فيها، ومن أبرز القضايا المتعلقة بتلك النشأة:

أ- حياة الطفولة وما تمنح الإنسان من طمأنينة في منازلها، وقد أصبحت هذه الطمأنينة المفتقدة في حياة أسامة اللاحقة مصدرًا لشحن متعلق بفقد المنـــزل والبيت الأليف، كان يتسرب إلى شعر أسامة ونثره برموز قريبة الدلالة مثل: الدار والجيران وما شابه، حتى إذا دهمت شيزر الزلازل المعروفة فيما بعد، اتضحت مكانة منازل الطفولة في النفس، وراح أسامة في تقديمه لكتابه "المنازل والديار"، يصرح بأن تلك البيوت التي درج فيها طفلاً، تبعث في نفسه بواعث الحزن على الفقد من جهة، ودوافع تأليف الكتاب من جهة أخرى، فيقول عن شيزر: "أول أرض مس جلدي

تراها، فما عرفت داري، ولا دور والدي وإخوتي، ولا دور أعمامي وبني عمي وأسرتي، فبهت متحيرًا مستعيذًا بالله من عظيم بلائه"[٩].

ب- ذكريات الحب التي ابتدأت في الحي، والتعلق بالحبيب القريب الذي يمنح استعادة صورة المنـــزل الأول القديم بعدًا إيحائيًا وانفعاليًا إضافيًا، وعلى الرغم من اقتراب منـــزلي الحبيبين وتجاورهما، فقد تقطعت حبال الحب دون تحقيق وصالهما، وهذا ما ولد في أدب أسامة صورة "القريب البعيد" التي ستتردد في مواضع مختلفة من شعره، في المراحل اللاحقة، محملة بصدى معاناتها الأولى في هذه المرحلة كما رسمتها قصيدة لأسامة، يقول فيها[١٠]:

"بنفسي قريب الدار والهجر دونه   وبعد التقالي غير بعد السباسب
أراه مكان النجـــم بعدًا وبيننا   كما بين عين في التداني وحاجب"

ويقول أسامة في هذا المجال ذاكرًا الدار والجيرة في صورة أدبية تمنح المكان دفء علاقات الحب، لتزيد من ألفته في نفس الشاعر الذي يستخدم لفظة الدار بحنان إنساني خاص، فيقول[١١]:

"تناءوا وما شطت بنا عنهم الدار   ومالت بهم عنا خطوب وأقدار
هم جيرتي والبعـــد بيني وبينهم   وأعجب شيء بعد من هو لي جار"

ج- المشاركة المبكرة لأسامة في الفروسية ومقاومة غزوات الفرنجة، فلهذه المشاركة المبكرة شأن بليغ في تثبيت أمكنة شيزر في وجدانه، مادام قد عرف فيها تحقيقًا لنـــزعة الذات في إثبات وجوده الاجتماعي وتفوقه بين أقرانه، وغالبًا ما يشير أسامة إلى ذلك بشيء من الاعتداد والزهو. يقول

في كتابه **لباب الآداب**: "ما باشرته وحضرته وشهدته من الحروب والمصادمات والوقائع، منذ كنت ابن خمس عشرة سنة"(١٢).

د- النماء المبكر لموهبته الأدبية عزز سعيه في تحصيل العلوم والمعارف، وصقل تكوينه الثقافي، وهذا ما أرهف إحساسه بالزمان والمكان، وأجج جذوة صِلاته بهما، فعبّر عما يختلج في صدره بأدب صادق جميل، وقد وصف أسامة في بداية ديوانه هذه المرحلة، فجعلها غرة العمر، وربط فهمه للأدب بالمآثر والمناقب، فقال: "فإني كلفت بنظم الشعر في غرة العمر، أظنه من المآثر والمناقب"(١٣).

ثانيًا: المرحلة الثانية:

فارق أسامة بن منقذ مرابع الطفولة ومغاني الشباب، ورحل إلى الموصل، فكان ذلك بداية فراقه المكان الأليف الذي احتضن نشأته وأحاطه بالرعاية والحنان. ولعل صلة شيزر بذكريات الطفولة مبعث صور فنية عميقة الدلالات في أدب أسامة، سيما إذا أخذنا بعين الاعتبار أن إقامته الجديدة في الموصل عجزت عن تعويضه شيئًا مما افتقده من العلاقات الحميمة التي كانت عامرة بينه وبين ذويه؛ فالموصل مكان جديد بالنسبة له، يلقي على منكبيه الغضتين مهمات عسكرية جسيمة، يشاركه في أدائها مقاتلون يثير بعضهم ريبته، ولا يجد في سلوك من حوله تجسيدًا لقيمه وفضائله السامية. في هذا الجو كتب أسامة قصائد جميلة بعث فيها سلافًا راقيًا من ذكريات ماضيه وأمكنتها، وهب سمة أولاها النقد الأدبي الحديث مكانة رفيعة في الفكر الأدبي الذي اهتم بالتأثير الكبير لمرحلة الطفولة والنشأة في المنجز الأدبي للأدباء. يقول غاستون باشلار: "المكانية في الأدب

هي الصورة الفنية التي تذكرنا أو تبعث فينا ذكريات بيت الطفولة، ومكانية الأدب العظيم تدور حول هذا المحور"[١٤].

يذكر أسامة في شعره تأثير ابتعاده عن داره في نفسه، هذه الدار المرتبطة بذكريات بيت الطفولة تستدعي في شعر أسامة ذكر الأقرباء والأصدقاء موحدة بين البشر والأمكنة بمزاج انفعالي يفيض جوى. يقول أسامة في قصيدة أرسلها من الموصل إلى أبيه في شيزر[١٥]:

"بهم تباريح أشواقي إليك وما   أجن من زفرات بالجوى نطق

أما كفاهم نوى داري وبعدك عن   عيني وفرقة إخوان الصبا الصدق"

إن حزن أسامة في البيت الأول من المقتبس السابق، يقوم على فراق يبعده عن مكانه الأليف الذي يعادله فنيًا في البيت الثاني بثلاثة من أبرز عناصره وهي:

أ- نوى الدار، بما توحيه من احتضان طفولته وتكوين الملاذ والملجأ لنفسه القلقة في مكان إقامته الجديد في الموصل.

ب- بعد الوالد، بما يمثله من تلبية حادبة على استيقاظ الطفولة الخبيئة في نفس الشاعر.

ج- فرقة إخوان الصبا، وما يحملون من المشاعل التي تكشف في زوايا نفسه ذكريات خبيئة طربة بالبِشر والتواريخ والأمكنة.

هذا الدمج بين المكان-الدار، والبشر-الوالد وإخوان الصبا، ذو دلالات عميقة الغور في التكوين النفسي للشاعر، وقد اهتم النقد الحديث بالدلالات المنبثقة عن العلاقة الأصيلة بين الأمكنة والبشر في كل صورة أدبية للمكان، يعبّر غاستون باشلار عن مثل تلك الدلالات بقوله: "إن

المكان الذي ينجذب نحوه الخيال لا يمكن أن يبقى مكانًا لا مباليًا، ذا أبعاد هندسية وحسب، فهو مكان قد عاش فيه بشر"[16].

تصبح المساحة التي ابتعدت بأسامة عنه مكانه الأليف مكانًا معاديًا، وإذا كان المكان القديم مصدر ولادة وخصب وحياة، فالدروب التي سلخته عنه بيد جرداء (تشقى الركاب بها) يقول[17]:

"كم دون ربعك مهمه متقاذف تشقى الركاب به، وبيد تملق
مل السرى فيه الصحاب فعرسوا والشوق يوضع بي إليك ويعنق"

تختار ريشة الشاعر من الواقع صورًا محددة تتقابل فيها الأمكنة تقابلاً يعبّر عن دلالاتها في وجدانه، ومن هنا تترادف كلمتا "المهمه" و"البيد" معبّرتين عن مكانين معادين، يقابلان مكانًا أليفًا هو "ربع الأحبة وذوي القربى"، يسرع الشاعر إليه بشوق وكأن الربع مكان محبوب عامر بالقيم الإنسانية، وما يبتعد بالشاعر عنه مصدر عداء خال من أسباب الحياة، عاجز عن توفير شروط الطمأنينة، وبذلك يمكن ملاحظة نوعين من الأمكنة في القصائد التي كتبها أسامة في هذه المرحلة:

أ- أمكنة أليفة محبوبة، تمثلها شيزر وربوعها العامرة بالألفة وذكريات الطفولة.

ب- أمكنة معادية تبعث الشعور بالبوار والشقاء، تمثلها المسافات التي تبتعد به عن شيزر.

هذا الموقف الثنائي من المكان، سيقود أسامة إلى العودة إلى شيزر والمشاركة في الدفاع الباسل عنها ضد الغزاة والأعداء، محققًا الفكرة الإنسانية الخالدة التي تجعل الإنسان مستعدًا للدفاع الماجد عن أمكنته الأليفة

المحبوبة، يقول غاستون باشلار في تمييز مثل هذه الأمكنة في الأدب: "القيمة الإنسانية لأنواع المكان الذي يمكننا الإمساك به، والذي يمكن الدفاع عنه ضد القوى المعادية، أي المكان الذي نحب"[١٨].

ثالثًا: المرحلة الثالثة:

يصف الباحث حسن عباس انتقال أسامة إلى دمشق بقوله: "خرج أسامة من شيزر منفيًا طريدًا سنة ٥٣٢هـ"[١٩]. وهذا الفهم لحالة أسامة في زمان ومكان محددين مفيد في دراسة سلوكه وحياته، وتذوق دلالات المنفى في أدبه، فإذا أضفنا إلى ذلك أن المكان الذي قادته إليه خطى النفي مضطرب بفتن سياسية وصراعات اجتماعية حادة، تبدى لنا شيء من بواعث شعور أسامة بالانكسار والضياع اللذين تجليا في قصائده صورًا معبّرة عن فقده الإحساس بأمان الانتماء، بعد أن فقد شيزر وربوعها، وانسلخ زمانها من يديه، فتركهما نهبًا لرياح المجهول، التي لم يجد أسامة في ساحاتها ملجأ يلوذ به أو جدارًا يستند إليه، ومن هنا يبرز إلحاحه على فكرة الانتساب والانتماء في شعره، فيقول مخاطبًا معين الدين أنر، أحد حكام دمشق في تلك المرحلة[٢٠]:

"فصار إلى مودتك انتسابي   على أني العظامي العصامي
ألم تعلـــم بأني لانتمـــائي   إليك رمى سوادي كل رام"

إن أسامة الضائع والتائه في مفازات منفاه ينتقل بين دمشق وصلخد معانيًا تخبط الحكام والمتنفذين ووقوعهم في أسر أهوائهم ونزاعاتهم الداخلية، بينما الفرنجة تنتظم خيولهم متوعدة بالمزيد من التنكيل، وفي هذا التنقل تزداد الهوة بين قدميه والمكان فتأتي لفظتا "انتسابي وانتمائي" في البيتين السابقين

في سياق رد فعل نفسي وسم وجدانه في هذه المرحلة، فهام يتشبث بحبال من أوهام، نسج خيال أسامة من خيوطها لوحة رؤيته لمعين الدين أنر. ومن الملاحظ أن ذلك كله أثر في حجم نتاجه الأدبي، فكان شحيحًا قليلاً، حمل سمات هذه المرحلة وطوابعها.

رابعًا: المرحلة الرابعة:

كانت سنوات إقامة أسامة في مصر منعمة، غمرته بالجاه والخيرات بدرجة لا عهد له بها من قبل. يقول في كتابه **الاعتبار**: "أقمت بها مدة في إكرام واحترام وإنعام متواصل وإقطاع زاج"[٢١]. وتقدمت مكانته في الحياة السياسية والاجتماعية، فبات من أقرب الناس إلى أصحاب النفوذ في الدولة والمجتمع، وهاهو يعبّر عن ذلك بقوله: "من كان في مصر يقدر أن يركب بسرج ذهب في أيام الحافظ، غيري"[٢٢]. لكن هذه الحال لم تدم طويلاً مع أسامة، فسرعان ما اضطر لترك الحياة الهانئة في القاهرة لتنفيذ سفارة سياسية عسكرية، عندما أوفد بعهد الخليفة الظافر، الذي جلس على كرسي الخلافة بعد وفاة أبيه الخليفة الحافظ، للقاء نور الدين زنكي في الشام، والسعي لديه في توحيد المواجهة العسكرية للفرنجة على الجبهتين المصرية والشامية، ويفصّل أسامة ما عاناه في هذه السفارة متحدثًا في كتابه **الاعتبار** عن المعارك التي شارك في تنظيمها وقيادتها في هذه المرحلة، وانعكست مؤثراتها في قصائده التي كتبها عن مقاومة الفرنجة بأسلوب يبدل، بنبرة الانكسار والضياع التي سادت في أدبه في المرحلة السابقة، شعورًا زاهيًا بالفخر، عامرًا بالحماسة والثقة بالنفس.

انتهت إقامة أسامة في مصر بفتن واضطرابات سلبته ثروته الطائلة وأودت بحكم حلفائه، مبدلة بزمان هناءته السابقة ورغد عيشه العزيز، زمانًا جديدًا مثقلاً بالهموم والمعاناة والمفاسد. يصف أسامة أحد أيام ذلك العهد الجديد بقوله: "كان ذلك اليوم من أشد الأيام التي مرت بي لما جرى فيه من البغي القبيح الذي ينكره الله تعالى وجميع الخلق"[٢٣].

إن هذا اليوم القبيح لم يأت مفاجئًا، فقد سبقته أحداث كثيرة أثرت في نظرة أسامة إلى مكان إقامته في مصر، فعبّر في شعره عن غربته عنه، وشعوره بالعداء إزاءه، وهو يقابله بالمكان القديم الأليف الأثير لديه، في ثنائية تسم أسلوبه في عرض الأمكنة التي زارها في حياته ضمن نوعين: أليف ومعاد، فتحضر مرابع طفولته في شيزر على ضفاف نهر العاصي رمزًا للمكان الأليف الذي يحنّ إليه وهو يعاني صروف الدهر في الأمكنة التي يتنقل بينها من بلد إلى بلد؛ يقول في شعره[٢٤]:

"يا مصر ما درت في وهمي ولا خلدي ولا أجالتك خلواتي بأفكاري

ما أنت أول أرض مس تربتهـــا جسمي، ولا فيك أوطاني وأوطاري"

تعبّر المقابلة بين مصر وأول أرض مس تربتها جسم الشاعر، أي بلدته شيزر الأثيرة لدى قلبه، عن تلك الثنائية التي يمكن تتبعها في شعره ونثره وهو يصف الأمكنة التي تنقل بين ربوعها في حياته، فإذا هي في نهاية المطاف موزعة بين مكانين:

أ - مكان معاد يسبب الأذى ويبعث القلق.

ب- مكان أليف عامر بالمودة والطمأنينة.

إن حديث أسامة عن أول أرض مس تربتها جسمه، يتكرر في غير نص من نصوص أدبه الشعري والنثري، معبرًا عن تعلقه بمرابع طفولته في شيزر التي دهمتها الزلازل وخربتها عام ٥٥٢هـ بعد ثلاث سنوات من مغادرته مصر، وقد كتب في مقدمة كتابه **المنازل والديار** الذي عبّر فيه عن معاناته لما أصابها: "دعاني إلى جمع هذا الكتاب ما نال بلادي وأوطاني من الخراب، فإن الزمان جر عليها ذيله... هي أول أرض مس جلدي ترابها"[٢٥].

خامسًا: المرحلة الخامسة:

عاد أسامة إلى دمشق بعد عقد زمني حافل بالأحداث المنطقة بمغامرات سياسية خطيرة، انتهت إلى تهشيم أحلام أسامة، بعد أن أكسبتها النجاحات العسكرية والسياسية أمجادًا مادية ومعنوية رفعت مكانته الاجتماعية، وكادت تنسيه جرح انسلاخه القديم عن مغاني طفولته وشبابه في شيزر. وهاهو من جديد مكبل يرزح تحت نير النكبات؛ فقد ترك مصر غارقة بالفتن، وتعرض في طريقه لعدوان فرنجي أُسر فيه أخوه، ثم نكبت السفينة التي حملت أسرته وخزائن كتبه، فنهبها الفرنجة قرب سواحل عكا، ناكثين بوعد كانوا قد قطعوه لحمايتها. إنه صفر اليدين إلا من أحزان تولد في نفسه حنينًا مبهمًا إلى زمان نشأته الأولى في شيزر، حتى إذا ضربتها الزلازل بعد ثلاث سنوات من مغادرته القاهرة وصل ذلك الحنين إلى ذرى تعاند حركة الزمن مرجعة عرباته إلى عهود قديمة، ما تزال كؤوسها ترن في مخيلة أسامة ووجدانه، فينسج في إحدى قصائده لوحة فريدة لغلبة حنينه على الزمان، يقول[٢٦]:

"حمائم الأيك هيجتن أشجانا   فليبك أصدقنا بثا وأشجانا

كم ذا الحنين على مر السنين؟ أما   أفادكن قديم العهد نسيانا"

كانت حال أسامة قبل الزلازل -التي ضربت شيزر سنة ٥٥٢هـ- تئن بالشكوى والمرارة، لاضطراب زمانه عند خروجه من مصر، كما يعبّر في قصائده، ومنها قصيدة كتبها في حلب، يقول فيها[٢٧]:

"ولا تسأليني عن زماني فإنني   أنزه عن شكوى الخطوب لساني

ولكن، سلي عني الزمان فإنه   يحدث عن صبري على الحدثان"

كانت غربة أسامة في الزمان قد بلغت شأوًا عميق الغور في نفسه، فلما جاءه خبر الزلازل، وما فعلته في شيزر، استيقظ حنينه إلى أمكنتها، وراح يكتب القصائد، عل الشعر يصالح بصوره ولوحاته بين أسامة ومعاندة الزمان والمكان لنفسه التائقة إلى الطمأنينة، ولكنه في لجوئه إلى القصيدة كان كالمستجير من الرمضاء بالنار. ولم تفلح في مؤازرته وهو على هذه الحال سوى مشاركته في العمل السياسي والعسكري من جديد بمستوى رفيع، عزز قربه من نور الدين زنكي (ت٥٦٩هـ)، وجعل مثقفي عصره ومؤرخيه يدوّنون اسمه في صفحات موسومة بالعز والبطولة، ومن ذلك ما يورده معاصره عز الدين ابن الأثير في كتابه **الكامل في التاريخ** فيقول: "ثم دخلت سنة سبع وخمسين وخمسمئة.. في هذه السنة جمع نور الدين محمود ابن زنكي صاحب الشام، العساكر بحلب، وسار إلى قلعة حارم، وهي للفرنج، غربي حلب، فحصرها وجدّ في قتالها.. وممن كان معه في هذه الغزوة مؤيد الدولة أسامة بن مرشد بن منقذ الكناني، وكان من الشجاعة في الغاية"[٢٨].

سادسًا: المرحلة السادسة:

تقدمت السن بأسامة في خلال إقامته في حصن "كيفا" في ديار بكر، وبدأ وهن الشيخوخة يدب في أوصاله، وأصابت سهامه من نفسه مقتلين عزيزين أثيرين لديه، طالما تغنى بهما مفتخرًا متطاولاً، وهما: فروسيته وأدبه، فراح يكني عن الفروسية الغائبة بما تركته بين يديه من إمكانات جسدية معطلة عن تجديد أمجادها الغابرة، وقد عبّر عن عجزه عن الكتابة التي يرود ميادينها بأنامل مرتعشة، فقال في ذلك(٢٩):

"مع الثمانين عاث الدهر في جلدي وساءني ضعف رجلي واضطراب يدي
إذا كتبت فخطي جد مضطرب كخط مرتعــش الكفين مرتعد
فاعجب لضعف يدي عن حملها قلما من بعد حطم القنا في لبة الأسد"

أصبح أسامة في عزلته في حصن كيفا بعيدًا عن المشاركة الحية في المعارك والأحداث السياسية التي يسلو بمجرياتها بعض ما يكابده مغطيًا بأردية أحداثها حنينه المستمر إلى مكان أليف يمنحه الطمأنينة. هاهو وحيد رحلته الطويلة مع الحياة، مخذول في مسعاه إلى مكان وزمان منشودين، إنه يعوض عن خذلانه بصحبة القرطاس والقلم راجعًا على جناحي مودتهما إلى مرابع طفولته في شيزر. وما إعداده لكتابه الشهير **المنازل والديار** سوى شكل من أشكال تلك العودة الحميمة المأمولة اللائبة على مكان مفقود. إنه يبكي مع الباكين على مكان وزمان ضائعين، وهما محنته الأساسية التي رافقت رحلة عطائه في حياته الطويلة.

سابعًا: المرحلة السابعة:

ازدادت معاناة أسامة مع وهن الشيخوخة في مرحلة إقامته الأخيرة في دمشق، وانعكست مؤثراتها في طريقة إبداع أدبه الذي بات يمليه على كتبته إملاء، ومن أبرز هذه المؤثرات في فن صناعة الكتابة لديه في هذه المرحلة المتأخرة من حياته ظهور بعض الأخطاء اللغوية والأسلوبية ذات سمات محددة، هي دون مستوى أديب أريب مثل أسامة، وقد فطن دارسو أدبه إلى هذا الإشكال في نسخ كتبه المؤلفة في هذه الحقبة، فكتب الدكتور يعقوب صروف في مجلة **المقتطف** القاهرية سنة ١٩٠٨م مقالات تناولت كتاب أسامة **لباب الآداب** المؤلف سنة ٥٧٩هـ. ومما جاء فيها: "في الكتاب علامات تدل على أن الناسخ قرأه للمؤلف فأصلح فيه قليلاً، لكن المؤلف لم يقرأه بنفسه، إما لضعف بصره في شيخوخته، أو لسبب آخر، لأن الكاتب يخطئ أحيانًا خطأ صرفيًا لا يدركه من يسمع ولا يقرأ، ولو رآه المؤلف لأصلحه حتمًا"[٣٠].

أصبحت حياة أسامة في هذه المرحلة مكابدة مضنية مع وهن الشيخوخة وأمراضها، فراحت قصائده تئن بزفرات التوجع، مبدلة بالحديث القديم عن مرح الشباب وزهوه، حديثًا عن موت قريب ومنية منتظرة. يقول في شعره[٣١]:

"إذا تقوس ظهر المرء من كبر   فعاد كالقوس يمشي والعصا الوتر

فالموت أروح آت يستريح به   والعيش فيه له التعذيب والضرر

بعد أن طالت سنوات العمر بأسامة، بدا له الموت مكانًا بديلاً ينشده بعد خذلانه في توفير مكان يسكن فيه مطمئنًا، وبذلك تكون هذه المرحلة قد أضافت إلى معاناته السابقة مكابدة الإنسان مع الشيخوخة التي تراها الدكتورة فاطمة محجوب في كتابها **قضية الزمن في الشعر العربي** مصدر

حديث ذي شجون في حياة الإنسان. تقول: "التحدث عما يصيب الجسم من ضعف ووهن، ومن أمراض وعلل يأتي الكبر بها، كلها أمور يخوض الناس فيها في أحاديثهم اليومية"[٣٢].

تأثر أسامة بمعاناته المرة مع تقدمه في السن، فقادته إلى تسطير وعيه بالزمان معبّرًا عن تأثيره الحاسم في تقلبات الحياة وصورها، فقال: "وكنت أظن الزمان لا يبلى جديده، ولا يهي شديده، وأني إذا عدت إلى الشام وجدت بها أيامي كعهدي، ما غيّرها الزمان بعدي، فلما عدت كذبتني وعود المطامع، وكان ذلك الظن كالسراب اللامع"[٣٣]. كما أكد أسامة فكرة وعيه بالزمان وتأثيره في كيانه وحياته، في العديد من قصائده، بمثل قوله[٣٤]:

"انظر إلى صرف دهري كيف عودني   بعد المشيب سوى عاداتي الأول
وفي تغاير صرف الدهــــر معتبر   وأي حال على الأيـــام لم تحل"

إن التأمل في الزمان وتأثيره في تغير حال الإنسان مع الكبر والتقدم في السن، هو الموضوع الأساس لشعر أسامة في هذه المرحلة والمرحلة التي سبقتها، فالشكوى من الوهن والضعف وعدم القدرة على حمل السلاح كسابق عهده، قضية يعرضها بصوره الأدبية المختلفة، غير أن تلك الشكوى لم تنل من عزمه على التأليف الأدبي والنقدي، فاستمر يؤلف الكتب، حتى إذا خانته يداه في الكتابة، استعان بمن يملي عليه من خزين علمه ومعرفته وأدبه.

خاتمة:

يوضح البحث في النتاج الأدبي لأسامة بن منقذ عبر مراحل حياته المختلفة أن تفاعل تلك المراحل مع عناصر الزمان والمكان، كان مصدرًا

أساسيًا من المصادر المؤثرة في طوابع أدبه وتجليات ظواهره؛ فهذا التنقل من مكان إلى مكان وما يرافقه من تبدلات لصروف الزمان التي تعكس ظلالها على الصعيدين الشخصي والاجتماعي من العوامل التي أثرت في اختيار أسامة لموضوعه الأدبي، ولصوره التعبيرية عن ذلك الموضوع، وقد عبّر في أدبه عن تلك العوامل بصراحة ووضوح، بمثل قوله في كتابه **المنازل والديار**: "تنقلت بنا الدنيا تنقل الظلال، وتقلب بنا الدهر من حال إلى حال"[٣٥].

غلبت على المراحل المختلفة التي مرت بها حياة أسامة سمات مشتركة وسمت صلاته الوثيقة بالزمان والمكان، لعل الشعور بالغربة في كل منهما يلون السمات المذكورة بلونه الخاص، وقد بدأ هذا اللون يعمق خطوط وشمه في ذراعي أسامة منذ صدامه مع عمه الأمير سلطان في شيزر، وخيبته في الحب التي رافقت ذلك الصدام، أو كانت نتيجة من نتائجه كما يرى بعض الدارسين[٣٦]. وعبثًا حاول أسامة أن يشق أمواج الحياة العاتية بذراعيه العنيدتين كاتبًا وفارسًا وسياسيًا لامعًا، لكنه كان يعود في كل مرة محملاً بخيبات وانكسارات تعمق وشم الغربة في ذراعيه، وتعزز في نفسه الميل إلى العزل والتأمل الذي وصل في مرحلته الأخيرة حدًّا من اليأس والإحباط جعله يفضل الموت على الحياة، متسربلاً برؤية سوداء تحتضن حنينًا دافئًا إلى مرابع شيزر التي عرف فيها أسامة ذات يوم مكانًا أليفًا عامرًا بالحب والمودة، عبثًا حاول أسامة أن يستبدل به مكانًا جديدًا. ومن المرجح أن فشل مثل هذه المحاولات يفسر معلمًا أساسيًا من معالم صلات أسامة بالزمان والمكان، يعبّر عنه بقوله: "إلى الله ﷻ أشكو ما لقيت من زماني،

وانفرادي عن أهلي وإخواني، واغترابي عن أهلي وأوطاني"[٣٧]. إن ما لقيه هذا الأديب الفارس من زمانه واغترابه عن أوطانه، تجلى تعبيرًا أدبيًا شاكيًا متمردًا حزينًا، يغلب ألوانه على لوحاته الأدبية: شعرًا ونثرًا، في مراحل حياته المختلفة.

الزمـــان			المكان	من أبرز القادة الذين التقى بهم أسامة
مراحل حياة أسامة بن منقذ		عدد السنوات		
الأولى	٤٨٨-٥٢٥هـ ١٠٩٥-١١٢٩م	٣٤	شيزر	١- سلطان بن منقذ
الثانية	٥٢٢-٥٣٣هـ ١١٢٩-١١٣٨م	١١	الموصل	١- عماد الدين زنكي
الثالثة	٥٣٣-٥٣٩هـ ١١٣٨-١١٤٤م	٦	دمشق	١- معين الدين أنر
الرابعة	٥٣٩-٥٤٩هـ ١١٤٤-١١٥٤م	١٠	القاهرة	١- الخليفة الظافر بأمر الله الفاطمي ٢- الوزير الملك العادل ابن السلار
الخامسة	٥٤٩-٥٥٩هـ ١١٥٤-١١٦٤م	١٠	دمشق	١- نور الدين زنكي
السادسة	٥٥٩-٥٧٠هـ ١١٦٤-١١٧٥م	١١	حصن كيفا على الفرات في ديار بكر	
السابعة	٥٧٠-٥٨٤هـ ١١٧٥-١١٨٨م	١٤	دمشق	١- صلاح الدين الأيوبي
	عمر أسامة بن منقذ	٩٦سنة		

الهوامش:

(١) عياد، شكري محمد، **المذاهب الأدبية والنقدية عند العرب والغربيين**، عالم المعرفة ١٧٧، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، أيلول، ١٩٩٣م، ١٤٦.

(٢) أسامة بن منقذ، **ديوان أسامة بن منقذ**، تحقيق د. أحمد أحمد بدوي وحامد عبدالمجيد، وزارة المعارف، القاهرة، ١٩٥٣م، ١٥٩.

(٣) المصدر نفسه، ٩٩.

(٤) قيطاز، محمد عدنان، **أسامة بن منقذ والجديد من آثاره وأشعاره**، وزارة الثقافة، دمشق، ١١.

(٥) أدونيس، علي أحمد سعيد، **مقدمة للشعر العربي**، دار الفكر، بيروت، ٧٣.

(٦) عباس، حسن، **أسامة بن منقذ حياته وآثاره**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، فرع الإسكندرية، ١٩٨١م، ١/١٢٠.

(٧) ابن عساكر، الحافظ، **التاريخ الكبير**، ترتيب الشيخ عبد القادر بدران، مطبعة روضة الشام، دمشق، ١٣٣٠هـ، ٢/٤٠٤.

(٨) باشلار، غاستون، **جماليات المكان**، ترجمة غالب هلسا، المؤسسة الجامعية، ط٢، بيروت، ١٩٨٤م، ٩.

(٩) أسامة بن منقذ، **المنازل و الديار**، تحقيق مصطفى حجازي، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ١٩٦٨م، ٤.

(١٠) أسامة بن منقذ، **ديوان أسامة بن منقذ**، ١.

(١١) المصدر نفسه.

(١٢) أسامة بن منقذ، **لباب الآداب**، تحقيق أحمد محمد شاكر، مكتبة لويس سركيس، القاهرة، ١٩٣٥م، ٢٢٦.

(١٣) أسامة بن منقذ، **ديوان أسامة بن منقذ**، ٤٣.

(١٤) باشلار، غاستون، **جماليات المكان**، ٦.

(١٥) أسامة بن منقذ، **ديوان أسامة بن منقذ**، ١٢٩.

(١٦) باشلار، غاستون، **جماليات المكان**، ٣١.

(١٧) أسامة بن منقذ، **ديوان أسامة بن منقذ**، ٨٧.

(١٨) باشلار، غاستون، **جماليات المكان**، ٣١.

(١٩) عباس، حسن، **أسامة بن منقذ حياته وآثاره**، ١/٩١.

(٢٠) أسامة بن منقذ، **ديوان أسامة بن منقذ**، ٢٢٠.

(٢١) أسامة بن منقذ، **كتاب الاعتبار**، تحقيق قاسم السامرائي، دار الأصالة، الرياض، المملكة العربية السعودية، ١٩٨٧م، ٦.

(٢٢) المصدر نفسه، ٢٩.

(٢٣) المصدر نفسه، ٢١.

(٢٤) أسامة بن منقذ، **ديوان أسامة بن منقذ**، ٢٢٠.

(٢٥) أسامة بن منقذ، **المنازل والديار**، ٦.

(٢٦) أسامة بن منقذ، **ديوان أسامة بن منقذ**، ٣٠٧.

(٢٧) المصدر نفسه، ٢٢٨.

(٢٨) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ط٢، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٧٦م، ٩/٣٩٩.

(٢٩) أسامة بن منقذ، **ديوان أسامة بن منقذ**، ١٦٣.

(٣٠) أسامة بن منقذ، **لباب الآداب**، ٨، المقدمة.

(٣١) أسامة بن منقذ، **ديوان أسامة بن منقذ**، ٢٦٩.

(٣٢) محجوب، د. فاطمة، **قضية الزمن في الشعر العربي**، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٠م، ٩.

(٣٣) أسامة بن منقذ، **المنازل والديار**، ١٠.

(٣٤) أسامة بن منقذ، **ديوان أسامة بن منقذ**، ٢٦٩.

(٣٥) أسامة بن منقذ، **المنازل والديار**، ٣.

(٣٦) عباس، حسن، **أسامة بن منقذ حياته وآثاره**، ١/١٩٣.

(٣٧) أسامة بن منقذ، **المنازل والديار**، ٤.

الرحلات الأندلسية والتواصل الحضاري

(٤)

بقلم: د. عزالدين عمر موسى*

مرتكزات فكره

إن مرتكزات فكره ثلاثة متصلة متداخلة متشابكة لا تنفصم، التوحيد والأحكام والتذكير، وهي عنده علوم القرآن الثلاثة، والتذكير منها هو معظم القرآن[١]، مما يؤكد ضرورة التربية ومكانتها. وتكاد مؤلفاته التي هو مكثر فيها[٢] تدور حول هذه الركائز الثلاثة. ذكر ذلك في قانون التأويل وبسطه[٣]. واتخذه مخططًا تقوم عليه كل "عارضة" في شرحه لصحيح الترمذي، ومخططه فيه هو ذكر السند واللغة والتوحيد والأحكام والآداب والإشارات إلى المصالح[٤].

إن التوحيد أساس للركيزتين الأخريين، فيحدثك فيه بأن الله واحد في ذاته وصفاته، ولا يجوز أن يكون له شبه فيها، "ولا في أفعاله، وكل من أضاف ذلك إليه فهو مشبه"؛ لأنه "خرج عن رسم الموحدين"[٥]. ولكن الله خلق الخلق نوعين "وأبدع من كل زوجين اثنين، لأن الوحدة له خالصة... فتكون الإثنية عليه دليلاً وبرهانًا"[٦]. فالله يستدل عليه بأفعاله "وإن لم تدرك ماهية ذاته"[٧]. وهو يرى أن الله فطر الآدمي وركب "عليه وفيه الازدواج ابتلاء". ولهذا فحاله بين نعمة وبلاء، وقبول وإباء، وضلال وهدى، وخير

وشر. وقوام ذلك عقل وهوى، ودليل وشبه، وتوفيق وخذلان. والنهاية جنة ونار، إما علّيين أو سجين[٨]. وينتهي إلى أن جميع علوم القرآن تخرج من هذه "الاثنية"، لأن "المعلومات على قسمين: معدوم وموجود، والموجودات على قسمين: خالق ومخلوق. والأوقات قسمان: دنيا وآخرة، والأعمال قسمان: نافع وضار"، ومن ثم يكون الأمر والنهي[٩].

لهذا كله حرص حرصًا عظيمًا على صفاء العقيدة ونقائها، ويرى أن أعداء ذلك هم الباطنية والمبتدعة في المشرق والظاهرية الحزمية في المغرب. وشنّ هجومًا فكريًا مركّزًا عليهم وعلى من تأثر بهم، ويلقاك ذلك في سائر كتبه. لقد تصدى في كتابه **العواصم من القواصم** إلى الفلاسفة وما يربو على عشرين فرقة، من مشبهة ومرجئة ومعتزلة، ومن باطنية ومعطلة، ومن إخوانية وفلاسفة وماديين، ومن أهل أديان أخرى؛ صابئة ويهود ونصارى وغيرهم. وكانت حملته شديدة على الظاهرية الحزمية التي وجدها بعد عودته قد ملأت المغرب، وألفى إشبيلية منهم طافحة، فنقض رسالة "الدرة" في الاعتقاد لابن حزم بأخرى سماها "الغرة"[١٠]، وهو شديد في انتقاده على ابن حزم، يسم آراءه بالتخليط ويصفه بالسخف[١١].

توكأ في مواجهة كل تلك الفِرق على مبادئ الأشعرية، فيقرظ رجالها بأنهم آحاد اختارهم الله لحماية الدين والذب عنه، وهم كوكبة تواترات ابتداء من أبي الحسن الأشعري الذي أكب على كتاب الله شارحًا له في خمسمائة مجلد[١٢]. ولكن الغزالي من بينهم وجد أن أولئك الأئمة لم يخاطبوا من نقدوهم بلغتهم، وإنما بكلام الله وسنّة رسوله فلم يفهموا عليهم، فانبرى

إليهم وكافحهم بأسلحتهم، ونقض عليهم أدلّتهم في كتبه التهافت والقسطاس والمعيار[١٣].

بيد أن ابن العربي وجد أن لا هذه الطريقة منجية ولا تلك شافية؛ ولذلك ينبغي المزاوجة بالعدل بينهما، ذبًّا عن الشرع بالعقل، وتأصيل العقل بالشرع. فهو يرى أنه "لا يصح أن يأتي في الشرع ما يضاد العقل، فإنه الذي يشهد بصحة الشرع ويزكيه..."[١٤] وهذا التأصيل ما ميز فكر أبي بكر عن غيره، وبه سعى لإقصاء الباطنية والمبتدعة والظاهرية الحزمية ومن إليهم فكريًا، وجهد في تصويب آراء الأشعرية أنفسهم لتستقيم مع العقل وتنضبط بالنقل. ولهذا يوصي بالاقتصار على كتب "علمائنا الأشعرية، وعلى العبارات الإسلامية، والأدلة القرآنية"[١٥]. وذهب في إحدى استدراكاته على الغزالي قائلاً: "وهذا مما لا نقول به اعتقادًا، ولا نرضاه دينًا، فإنه لا يشهد له عقل، ولم يرد به نقل"[١٦]. ولكنه وجد لعلماء الأشاعرة مندوحة في عدولهم عن الكتاب إلى أدلة العقول لأنها جاءت فيه مختصرة بفضل الفصاحة، ولأنهم أرادوا أن يبصروا الملحدة والمبتدعة[١٧].

ربما يجوز القول بأن هذه المواءمة بين النقل والعقل قد مهدت الطريق لما قام به ابن رشد فيما بعد من توفيق بين الحكمة والشريعة. إلا أن هذا المنهج التأصيلي باعد بين صاحبه وبين الشيعة عمومًا والباطنية خصوصًا، وذلك بهجومه العنيف على القول بعصمة الإمام لأنها لم تثبت نقلاً ولا تستقيم عقلاً[١٨]. كما أن بالمنهج ذاته فرق بين حب آل البيت، وهو شرع، وبين التشيع وهو مذهب. فهو يرى أن الحسين قتل بسيف الشريعة يوم خرج، واستند في ذلك إلى حديث "إنها ستكون هنات وهنات، فمن

أراد أن يفرّق أمر هذه الأمّة وهي جميع فاضربوه بالسيف كائنًا من كان"، فلام الحسين على خروجه[19]. غير أنه محب لآل البيت فبكاه، وقال: "يا أسفى على المصائب مرة، ويا أسفى على مصيبة الحسين ألف مرة! بوله يجري على صدر النبي فلا يغسل ودمه يراق على البوغاء ولا يحقن، يا لله! ويا للمسلمين[20]. ثم قال متهكمًا على من جَرَّحَ يزيد بشرب الخمر وقاد المسلمين إلى مصيبة الدهر، "أردنا أن نطهر الأرض من خمر يزيد، فأرقنا دم الحسين!! فجاءتنا مصيبة لا يجبرها سرور الدهر"[21]. فتح طريقًا لأدب البكاء الأندلسي في مأساة أهل البيت التي حاكت مأساة أهل الأندلس فبكوا آل البيت ولم يتشيعوا[22]، وأصبح يمثل المغاربة في ذلك قول عبد المهيمن الحضرمي السبتي: "أُحبهم حب التشرع لا حب التشيع"[23].

ويترتب على سلامة العقيدة تطبيق الشريعة، فاحتلت الأحكام مكانًا بارزًا في فكر أبي بكر، فصنف فيها من خلال ما كتبه عن القرآن والحديث، وأفرد لها مصنفات فقهية مستقلة بذاتها في أصول الفقه ومسائل الخلاف، ويبدو أنه أجملها في كتاب **المحصول** الذي يحيل طالب العلم المبتدئ إليه[24].

وجاء التأصيل واضحًا في هذا المجال الفقهي بالانفتاح الكلي على مذاهب أهل السنّة. وقرر ابن العربي الأصول على سائرها، ويورد آراءهم في المسألة الواحدة، لكنه بالدليل يهتدي تمسكًا بالنص واهتداء بالعقل. وكثيرًا ما جاء رأيه مؤيدًا مذهب مالك[25]. ويبدو أنه كان مسرورًا لما حكم المستظهر بالله في قتل الباطنية دون قبول توبتهم حسبما رآه مالك، فعلّق: "فكانت أول مسألة حكم فيها بمذهب مالك بمدينة السلام بعد

أحوال وأعوام"[٢٦]. ويظهر أن ميله إلى مذهب مالك يرجع إلى الخصوصية المغربية من جهة وإلى منهج ابن العربي من جهة أخرى. وتجلت الأولى في توحيد أهل المغرب مذهبيًا عليه، فلم يرد أن ينكر ذلك عليهم، وقد تطابق منهجه مع مذهب مالك في أصوله، وإنما نعى عليهم التمسك بفروعه، وقد لا تتطابق مع مالك في أقواله[٢٧].

ودعاه التأصيل إلى قول في الاجتهاد شبيه بالمناداة إلى الاجتهاد الجماعي، يقول: "فأما إن وقعت نازلة عظمى بالمسلمين، فلا ينبغي أن يقتصر فيها على عالم واحد، كما كانت الصحابة تفعله، وليسأل عنها كل من يظن أن عنه علمًا، فإنها إن وضعت في يدي غير أهلها كان ذلك عائدًا بفساد الحال[٢٨].

ثم إن سلامة العقيدة المفضية لتطبيق الشريعة، وأساسهما عنده العلم، يقتضيان التعليم وهو السبيل إلى معرفة العلوم، وينبغي الالتزام بشروطه، والمواظبة عليه للوصول إليه[٢٩]. وشرح في **العواصم من القواصم** منهجًا للتعليم فيه شيء من المشرق وآخر من المغرب، وبينهما له اجتهاد. وهو منهاج شامل يجعل الإنسان في كل فن مشاركًا، لأن الإحاطة في نظره غير ممكنة[٣٠]. وجعل مراحله مرتبة واضحة في قانون التأويل، أولها تعلم العربية والأشعار، فالحساب، فالقرآن، فأصول الفقه، فالحديث، ثم "تركيب الجميع على آي من القرآن". وواضح أنه أراد أن يمتلك المتعلم الأدوات ثم يغوص في بحور القرآن والأصول والفقه والحديث حتى يتمكن من النظر، ولهذا تحسّر على غفلة أهل بلاده إذ يأخذون الطفل بالقرآن أولاً، فيقرأ ما لا يفهم"[٣١].

واستحسن ابن خلدون طريقته ولكنها في نظره غير عملية، ودافع عن تقديم أهل المغرب للقرآن على غيره(٣٢). ويبدو أن ابن خلدون لم ينبه إلى أن التعليم عند أبي بكر يشكل جزءًا من منهجه في التغيير الذي يريده لحل مشاكل العصر، يقوم على الفكر والتربية، وبه يريد تخريج نخب صلبة قادرة على تحصيل المعرفة المؤصلة ليستقلوا بأعباء الشريعة، وليذبوا عن حرماتها(٣٣). ولهذا فالتعليم الذي ينشده مخالف للباطنية والمشبهة وغلاة الصوفية، إذ المبتغى منه الوصول إلى النفس المطمئنة التي لها -بنظره- منازل سبع، أولها التوحيد وثانيها ذكر الله(٣٤)، وهاتان المنــــزلتان من ركائز العلم الثلاثة في مشروعه، إذ العلم منشئ للعمل.

وهكذا تجتمع التربية والتعليم عنده في قرن، لأن التربية بالتذكير تديم استمرار العمل وتحفظ توجهه إلى الله، وهو المقصود به، وهنا منشأ اختلافه عن غلاة المتصوفة الذين أرادوا اعتزال الحياة بتطهير "القلب من علاقة البدن المحسوس" من جهة، واتخاذ العمل طريقًا إلى المعرفة بالكشف لا بالكسب وبالفيض أو الإشراق من جهة أخرى(٣٥)، فأخذوا بالتأويل الباطني القائم على التفسير الإشاري(٣٦)، فالتقوا مع الباطنية في المنهج والطريقة، وعادة ما يجمع بينهم في نقده(٣٧) الذي تدفعه إليه أسباب عقدية ذات أبعاد معرفية وسياسية. ومن هنا يتكشف سر خلافه مع شيخه الغزالي الذي تبنى بالتصوف المغالي ما أنكره على الباطنية، فأصبح وهم سواء. فشن هجومًا نقليًا وعقليًا عنيفًا الغزالي وما يمثله في حدة ظاهرة(٣٨) على ما كان له من فضل قبل تطرفه في تصوفه وتوحشه وانعزاله(٣٩).

وعلى هذا يستبعد أن يكون أبوبكر أخذ بطريقة أولئك القوم استنادًا إلى تفسير آية سئل عنها ونص هو ذاته عليه[٤٠] لأنه مخالف لمنهجه ومواقفه. لقد ذكر أنه لقي من رجال التصوف الجم الغفير وخبر حالهم. وهكذا كان شأنه مع سائر الطوائف والفِرَق، إلا أنه لم يأخذ إلا عن كتب المعتدلين كالحارث المحاسبي (ت٢٤٣هـ)، وأبي القاسم القشيري[٤١] (ت٤٦٥هـ). وله عليهم استدراكات[٤٢]. فأصّل تيارًا زهديًا سنيًّا يتوافق ونظرته الكلية للعلم وارتباطه بالعمل، فصنف "**سراج المهتدين**". صنف أهل هذا الشأن المتجردين للخدمة، الدائبين على العبادة، المعتزلين الخلق في فئة العلماء حفاظ الدين والأئمة الناصحين لدين الله[٤٣]. وهذا التيار كان قائمًا قبله، ولقي أهله، فأطلق عليهم صفة الزهد مع الطرطوشي[٤٤] ونصر المقدسي[٤٥] والخلعي[٤٦] أو الفقراء مع ابن عطاء المقدسي[٤٧] أو التبتل مع جماعة نصر المقدسي[٤٨] أو أهل "الطريقة المثلى في العزلة عن الدنيا" مع من لقي في المنستير[٤٩]. ولهذا لا يستغرب أن يتتلمذ عليه أقطاب التصوف المغربي المتسنن مثل أبي الحسن بن حرزهم وأبي يعزي يلنور وغيرهما[٥٠] مما يدعو إلى القول بأن تأصيله للزهد فتح لهم بابًا منه ولجوا، لا سيما وأن التصوف في عصر المرابطين قد رُبط بأبي حامد الغزالي و**الإحياء** خاصة، وأحرقت نسخه في سنة ٥٠٣هـ[٥١].

وهو بهذا المفهوم زاهد، يشجيه جمال الصوت في ترتيل القرآن، وينقله إلى آفاق بعيدة، حدث ذلك في مصر[٥٢]، وبيت المقدس[٥٣]، وبغداد[٥٤]، ويبتعد عن كل ما يلهيه. ويصدف حتى عن الشطرنج الذي حذقه "أيام البطالة"[٥٥]، لكنه عن العمل لا يتوقف. لقد قال عن لقائه بشيخه

الطرطوشي في القدس "ونفعني الله به في العلم والعمل"[٥٦]. وأصبح العمل عند ابن العربي هو تدريس العلم. يقول أحد الذين أخذوا عنه في قرطبة: "وكنا نبيت معه في منـــزله بقرطبة، فكانت الكتب عن يمينه وعن شماله، وكان لا يتجرد من ثوبه، وكانت له ثياب طويلة يلبسها بالليل، وينام فيها إذا غلبه النوم، ومهما استيقظ مد يده إلى كتاب، وكان مصباحه لا ينطفئ الليل كله"[٥٧]. فهو رجل صاحب رسالة ندب نفسه إلى تبليغها، وهي تغيير مجتمعه بتصحيحه عقيدته، وتبيان الأحكام وفقًا لأصول الشرع وضوابط العقل، وذلك بتعليم الناس وتربيتهم.

كان تحصيل العلم ومدارسته، تلقيًا ومشاركة، يملأ كل وقته في رحلته. وكانت إذاعته في الناس همه الشاغل منذ أن رجع إلى بلده إشبيلية سنة ٤٩٥هـ/١١٠١م وإلى وفاته سنة ٥٤٣هـ/١١٤٨م، أي فيما يقارب الستين عامًا لم يتفرغ لغيره إلا في فترة توليه قضاء بلده. فوصفه مترجموه بالحرص على أداء المعارف المتنوعة النافذ فيها ونشرها[٥٨]. ويدلك على ذلك التصنيفات الكثيرة التي سبقت الإشارة إليها وبرز فيها في كل الفنون التي اختارها، ويكثر ويطيل في الكتاب الواحد لأنه يبسط في كل قضايا التوحيد والأحكام والتذكير، خاصة في مصنفاته في القرآن والحديث. فقد ألّف كتابه **أنوار الفجر** في التفسير في عشرين سنة، في ثمانين ألف ورقة. يقول ابن فرحون: "وتفرقت بأيدي الناس"[٥٩]. ألا يدل هذا على أنه أراد هذا الكتاب وسيلة لفكره التغييري، فانظر إلى عنوانه في قانون التأويل وما يرمز إليه بعد حديثه عن معرفة الرب فيخاطبك قائلاً: "وإذا أضاء لك الفجر على الطريق فاسلكه"[٦٠]. والراجح أنه أراده حاويًا لكل فكره،

وحسبك أنه يطيل تفسير الآية فيه مؤصلاً لآرائه بالحديث، ومبينًا أصول العقيدة، ومستخرجًا الأحكام. ويحيلك عليه في كتبه الأخرى، وإذا عرضت مسألة يعلمك أنه توسع فيها هناك، فأملى في تفسير آية مائة وثمانين ورقة[٦١] أو مائة ورقة[٦٢] أو استغرق التفسير فيها عدة مجالس[٦٣] أو أنه فصّله تفصيلاً؛ فمثلاً بلغت معجزات النبي عنده ألف معجزة[٦٤].

وهناك مؤشرات عديدة على مدى انتشار علمه في حياته مما ينبئك أنه أوقفها على هذا الهدف؛ من هذه المؤشرات:

أولًا: عدد الكتب المشرقية التي أدخلها المغرب وتنوعها، وذكر أنه أتى بكتب لم يسبق إليها أحد[٦٥].

ثانيًا: عدد مؤلفاته وتنوعها وأحجامها. رصد عمار الطالبي عددها وصنفها، فبلغت سبعة وأربعين كتابًا[٦٦]، وعند سعيد أعراب وصلت إلى اثنين وتسعين[٦٧]. وواضح أن قائمته اشتملت على مستلات من الكتب، ذاعت بين الناس، وعرفت بعناوين موضوعاتها. ولتبيان تنوعها وارتباط إنتاجه بفكره التأصيلي إليك هذا البيان وفق قائمة الطالبي علاوة على ما ذكره أعراب في التربية:

الموضوع	عدد المصنفات
التفسير وعلومه	٥
الحديث	١١
مشكل القرآن والحديث	١
أصول الدين	٧
الفقه وأصوله	١٠

مسائل الخلاف	٣
الزهد	٥
اللغة والنحو	٢
التربية	٢
ما يتعلق بسيرته	٣

لعلك استبصرت أن مؤلفاته قد دارت حول العلم الذي أراده أداة تغيير، فاحتل التأصيل التوحيدي (التفسير، الحديث، المشكل، أصول الدين) ٤٩% والأحكام ٢٦,٥% والتربية (زهد، تربية) ١٤% واللغة والنحو ٤% وما يتعلق بسيرته ٦%. وهذه النسب تتوافق مع منهج التربية الذي اقترحه، فأوصى بعد امتلاك طالب العلم لأدواته أن يتناول **المتوسط** (عقيدة) **والمحصول** (فقه) ثم في المرحلة النهائية كتاب "**المشكلين**" وكتاب **أحكام القرآن** تفصيلاً[٦٨] مزاوجًا بين العقيدة والتطبيق.

ونتيجة لما جاء به من كتب وما ألف عن مصنفات، فقد سمع منه تلاميذه الشيء الكثير، وهناك خبر عمن أخذ عنه أكثر من مائة[٦٩]، وآخر ما يقارب المائة وخمسة وعشرين[٧٠].

ثالثًا: كثرة تلاميذه الذين هرعوا إليه حيث أقام أو نزل. وقد أحصاهم سعيد أعراب، وذكر ممن هم في مصاف شيوخه سبعة عشر، ومن توفي بعده مائة وأربعة؛ بين محدث وراوية وفقيه ومشاور[٧١]. وقال القاضي عياض: "وجلس للوعظ والتفسير ورُحِل إليه للسماع"[٧٢].

العِلْم المؤصّل وسيلة التغيير الشامل

إن هذه السيرة العلمية والنهج التعليمي التبصيري التثقيفي لا يدعان مجالاً إلى القول بأنه ما اتخذ السلطة السياسية وسيلة للتغيير الذي نشده أو قل إنه لم يجد إلى ذلك سبيلاً. غير أن جمهور الدارسين يذهبون إلى رأي مخالف، ويقولون بالتزامه بدولة المرابطين ونهجها، مستشهدين بالأهداف السياسية لسفارته ووالده، وعلاقته بسير بن أبي بكر اللمتوني، والي إشبيلية، وتوليته له الشورى فيها، وتقلده للقضاء، واشتراكه في غزوات المرابطين مدافعين عن الثغرين، الشمالي والشرقي، وتأولوا بيعته للموحدين لخوفه منهم لمخالفتهم الرأي في "العصمة" ولتأييده للمرابطين[٧٣].

لقد سبق التمييز بين الأهداف المتعددة للوالد، والدافع العلمي للولد، ومن ثم من الصعب القبول بما ذهب إليه بعضهم عن لقاء ابن تاشفين به، والاحتفاء به، والوعد بتقديمه وتكريمه وتوصية أمراء الأندلس به. فكل هذا لا يسنده الدليل بل ينقضه، فإن اللقاء وارد، أما التوصية ففيها شيء. لقد ظلت أملاك والده مصادرة بعد عودته لأكثر من عشر سنين. ولم يرجعها إليه إلا الأمير إبراهيم بن يوسف بن تاشفين وبوساطة من الفقيه أبي علي الصدفي[٧٤]، وليس في إمارة سير بن أبي بكر الذي رجع ابن العربي في أيامه، وعاش سنين عددا. ولم يل في إمارته غير الشورى[٧٥]، وليس لها دلالة سياسية بقدر ما هي على المرتبة العلمية دالة.

وقل مثل هذا عن توليته القضاء في عام ٥٢٨هـ، بيد أنه في مركز تنفيذ، فقالت المصادر: "وكانت له في الظالمين سورة مرهوبة، مع الرفق بالمساكين، والأمر بالمعروف والهي عن المنكر"[٧٦]. والظاهر أنه وجدها

فرصة لتطبيق ما نادى به، على الأقل في العبادات والعادات الاجتماعية، ولم يطقه الناس، وثاروا عليه. ويقول القاضي عياض إنه "صُرف"(٧٧). ويصف هو تجربته هذه فيقول: "ولقد حكمت بين الناس، فألزمتهم الصلاة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حتى لم يك يُرى في الأرض منكر. واشتد الخطب على أهل الغصب، وعم على الفسقة الكرب، فتألبوا وألبوا، وثاروا إليّ... فعاثوا عليّ، وأمسيت سليب الدار، ولولا ما سبق من حسن المقدار لكنت قتيل الدار"(٧٨).

وباستثناء هذه الفترة القصيرة جدًا لم يعرف له عمل تنفيذي في العهد المرابطي، وهي فترة محدودة جدًا زمانًا، ومحصورة جدًا مكانًا، لرجل في قامته كان يتشوف لعمل كبير يصد به مهددات الداخل العقدية ومخاطر الخارج الصليبية، ويسعى لتأصيل الفكر ليعود العمل بالإسلام نقيًا. وفي هذا الإطار ينبغي النظر إلى مشاركته في الجهاد مع المرابطين وموقفه منهم ومن الموحدين من بعدهم.

لقد حثّ أمير إشبيلية على الجهاد قبل سقوط سرقسطة(٧٩). وشهد معركة كتندة سنة ٥١٤هـ(٨٠)، واشترك في غزوة إلى الثغور الشرقية، وفي أخرى مرّ ببلنسية(٨١). فالمشاركة هذه ليس لأنه مرابطي الولاء وإنما بدافع الفرض الشرعي الذي اقتضاها، وهذا هو أحد مرتكزات عدم معاداتهم أو انتقادهم، فقد ذكر صاحب الحلل الموشية أن ابن العربي أشاد بالمرابطين وقال لو لم يكن لهم "فضيلة... إلا الزلاقة لكان ذلك من أعظم فخرهم وأربح تجارتهم"(٨٢).

(للبحث صلة)

الهوامش:

* أستاذ بقسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة الملك سعود، الرياض، المملكة العربية السعودية.

(١) **قانون التأويل**، ٣٣٠.

(٢) انظر ما قام به أعراب (المرجع السابق ص١٢١-١٧٣) من رصد طيب وتبويب رائع لمؤلفات ابن العربي.

(٣) **قانون التأويل**، ٢٧٩-٣٣٨.

(٤) **عارضة الأحوذي**، ٦/١.

(٥) **قانون التأويل**، ١٢٧.

(٦) **العواصم**، ٨/٢.

(٧) **قانون التأويل**، ١٣٣.

(٨) **العواصم**، ٨/٢-٩.

(٩) **قانون التأويل**، ١٥١، ١٨٠.

(١٠) **العواصم**، ٣٣٦/٢-٣٣٨.

(١١) المصدر نفسه، ١٠٧/٢، ٣٣٦، ٣٥٠، ٣٦٣.

(١٢) نفسه، ٩٧/٢.

(١٣) نفسه، ١٠٥/٢-١٠٦.

(١٤) **قانون التأويل**، ٣٥١-٣٥٢.

(١٥) **العواصم**، ١٠٨/٢.

(١٦) المصدر ذاته، ١٢٧/٢.

(١٧) **قانون التأويل**، ١٧٦-١٧٧.

(١٨) **العواصم**، ٥٩/٢ وما بعدها.

(١٩) المصدر ذاته، ٤٥٥/٢.

(٢٠) نفسه، ٤٥٣/٢.

(٢١) نفسه، ٤٥٤/٢.

(٢٢) انظر محمود مكي، "التشيع في الأندلس، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، ١٩٥٤م، عددي ١-٢، عزالدين عمر موسى، مقدمته **لدرر السبط** لابن الأبار القضاعي، ص٤١ وما بعدها.

(٢٣) **نفح الطيب**، للمقري، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار صادر، ١٩٦٨م، ٤٦٩/٥.

(٢٤) **قانون التأويل**، ٣٤٧.

(٢٥) انظر مثلاً **أحكام القرآن**، ٣٢/١، ٣٤-٣٥، ٨٨. وهذا مستفيض مما دفع مصطفى إبراهيم المشني أن يعقد فصلاً عنوانه "ظاهرة التعصب المذهبي للمالكية عند ابن العربي" (انظر المرجع السابق، ص٣١٢-٣٢٢) ووقف عند أمرين، الثناء العظيم على الإمام مالك وترجيح المذهب المالكي والهجوم على مخالفيه. وأحسب أنه فاته أن ابن العربي يميز بين أصول مذهب مالك وكتب الفروع فيه، ويأخذ بالأول وفق منهجه

التأصيلي، ولهذا تجده كثيرًا ما يردد عبارة وهذا "صريح مذهب مالك في أصوله كلها" انظر **أحكام القرآن**، ١/٢٤، ١٩٥

(٢٦) **العواصم**، ٢/٧٧-٧٨.

(٢٧) المصدر نفسه، ٢/٤٩٠-٤٩١؛ أيضًا أعراب، المرجع السابق، ١٤٧.

(٢٨) **العواصم**، ٢/٥٠٢-٥٠٣.

(٢٩) **قانون التأويل**، ٣٣٩.

(٣٠) **العواصم**، ٢/٤٩٦-٤٩٨.

(٣١) **قانون التأويل**، ٣٤٦-٣٤٩.

(٣٢) **العِبَر**، لابن خلدون، ١/١٠٤١-١٠٤٢.

(٣٣) **قانون التأويل**، ١٠٩.

(٣٤) انظر هذه المنازل في **قانون التأويل**، ١٦٠-١٦١.

(٣٥) **العواصم**، ٢/١٥، ٣٠، ٣١.

(٣٦) **قانون التأويل**، ١٩٦ وما بعدها، **العواصم**، ٢/٢٦٩.

(٣٧) انظر مثلاً **العواصم**، ٢/١٧.

(٣٨) انظر دراسة عبدالمجيد الصغير، "البعد السياسي في نقد القاضي ابن العربي لتصوف الغزالي"، ضمن "**أبو حامد الغزالي**"، الرباط، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب، ١٩٨٨م، خاصة ص١٨٦ وما بعدها.

(٣٩) يذكر ابن العماد، رواية شاذة غريبة نقلاً عن الشيخ علاء الدين علي بن الصيرفي أن ابن العربي لقي الغزالي في برية الشام هائمًا سائحًا، وأنكر عليه ذلك (انظر **شذرات الذهب**، القاهرة، مكتبة القدسي، ١٣٥٠هـ، ٤/١٣). ولكن الأهم من كل ذلك أن ابن العربي نقد مرتكزات فكر الغزالي الصوفي.

(٤٠) **قانون التأويل**، ١٩٨، أعراب، المرجع السابق، ٢٠٧.

(٤١) **العواصم**، ٢/٢٩-٣٠.

(٤٢) **قانون التأويل**، ٢٠٧.

(٤٣) **العواصم**، ٢/٤٢٨-٤٢٩. وتجده يستشهد بالتصوف المعتدل (انظر **أحكام القرآن**، ٣/١٠٨٣، ١١٣١، ١١٤٠، ١٤٣٤).

(٤٤) **سراج المريدين**، ٢٤٢.

(٤٥) المصدر نفسه، ٧٣.

(٤٦) **أحكام القرآن**، ٢/٦٧٢.

(٤٧) **سراج المريدين**، ٧٥.

(٤٨) **قانون التأويل**، ٢٠٧.

(٤٩) **سراج المريدين**، ٧٢.

(٥٠) انظر سلاسل متصوفة المغرب التي تنتهي إلى الغزالي عن طريق مصافحة ابن العربي (المقري، **أزهار الرياض**، تحقيق الهراس وأعراب، الرباط، اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، ٥/٥٧-٥٨. وانظر **أعراب** (المرجع السابق، ١٥٦) والاختلاف حول هذه المسألة.

(٥١) **نظم الجمان**، لابن القطان، تحقيق محمود علي مكي، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٠م، ٧٠-٧١. وانظر عن دوافع المرابطين السياسية الصغير، المرجع السابق، ١٨٥ وما بعدها، غير أن ابن طلموس قال في كتاب المدخل إلى صناعة المنطق أن أبابكر بن العربي امتحن في هذه المسألة (انظر أعراب، المرجع السابق، ٧٩-٨٠ والصغير، المرجع السابق، ١٨٣).

(٥٢) **سراج المريدين**، ٥٥، ١٥٨.

(٥٣) **أحكام القرآن**، ٤/١٥٩٦.

(٥٤) المصدر نفسه والصفحة ذاتها.

(٥٥) **قانون التأويل**، ٨٦.

(٥٦) المصدر ذاته، ٩٣.

(٥٧) **بغية الملتمس**، ٨٣، ويصفه ابن بشكوال بالحرص على أداء العلم ونشره (**الصلة**، ٥٥٨).

(٥٨) **وفيات الأعيان**، ٤/٢٩٦؛ **الديباج**، ٢/٢٥٤.

(٥٩) **الديباج**، ٢/٢٥٤.

(٦٠) **قانون التأويل**، ١٣٢.

(٦١) **أحكام القرآن**، ٤/١٩٧٤.

(٦٢) المصدر نفسه، ١/٤٧٠.

(٦٣) **عارضة الأحوذي**، ١٢/١٠٥.

(٦٤) المصدر نفسه، ٢/٢٩٣، ١٢/١٧٥، ١٣/١٥١-١٥٢.

(٦٥) **سراج المريدين**، ٢٢٩-٢٣٧.

(٦٦) انظر عمار الطالبي، المرجع السابق، ١/٦٦-٨٣.

(٦٧) انظر أعراب، المرجع السابق، ١٢١-١٧٣ ورجحت ما أحصاه عمار الطالبي، لأن الضبي يقول "عدة تواليفه نحو الأربعين تأليفًا" (انظر **بغية الملتمس**، ٨٣).

(٦٨) **قانون التأويل**، ٣٤٧-٣٤٨.

(٦٩) هذا خبر عن أبي محمد عبيدالله بن محمد الحجري (ت٥٩١هـ). انظر عنه **التكملة لكتاب الصلة**، لابن الأبار، القاهرة، مكتب نشر الثقافة الإسلامية، ١٣٧٥هـ/١٩٥٦م، ٤٩٣.و مثل هذا الخبر عنه لا يستغرب لملازمته لابن العربي وما اشتهر به من علو الإسناد، وسعة الرواية، وقد عمّر (راجع **صلة الصلة**، ٣/١١٩-١٢٤).

(٧٠) راجعها في مواضع مختلفة من فهرسته (ابن خير الأشبيلي، **فهرسة ما رواه عن شيوخه**، بيروت، دار الآفاق الجديدة، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، مثلاً ص٥١، ٥٤، ٨٨، ١٦٦، ١٧٥، ٢٥٨، ٤٢٧، إلخ وكلها قراءة منه وسماعًا عليه.

(٧١) **أعراب**، المرجع السابق، ٩١-١١١.

(٧٢) **الغنية**، ٦٨.

(٧٣) المرجع السابق، ١/٨٤-٨٦؛ **أعراب**، ٧٦-٨٨؛ **الصغير**، ١٨٥.

(٧٤) **المعجم**، لابن الأبار، ٥٦.

(٧٥) **الغنية**، ٦٨؛ **الديباج**، ٢/٢٥٤.

(٧٦) راجع **الصلة**، ٥٥٩؛ البيان المغرب، ٤/٩٢-٩٤؛ **النباهي المرقبة العليا**، تحقيق ليفي بروفنسال، القاهرة، دار الكاتب المصري، ١٩٤٨م، ١٠٦؛ **الديباج**، ٢/٢٥٤.

(٧٧) **الغنية**، ٦٨، ٥٥٩.

(٧٨) **العواصم**، ٢/٤٠٠-٤٠١.

(٧٩) **أحكام القرآن**، ٢/٩٥٥؛ **نفح الطيب**، ٤/٤٧٧.

(٨٠) **المعجم**، لابن الأبار، ٨.

(٨١) انظر: **قانون التأويل**، ١٣٩؛ **التكملة**، ١/٣٤٤، ٣٥٠.

(٨٢) **الحلل الموشية**، ١٤٠، نقلاً عن **عارضة الأحوذي** لابن العربي.

إتقان الأنباط لحرفة زراعة شجر الزيتون

بقلم: د. حمدان عبدالمجيد الكبيسي*

مقدمة:

تعني لفظة "نبط" نبع، وبابه، دخل وجلس. والاستنباط، الاستخراج. و"النَّبَطُ" بفتحتين. و"النَّبِيطُ" قوم ينـــزلون البطائح بين العراقيين. والجمع أنباط[١]. كانت لهم في قديم الزمان دولة وحضارة لا تزال آثارها شامخة إلى الآن[٢]. قال الزبيدي[٣]: "إن لفظة **نبط** مأخوذة من: نبط الماء ينبط، ونبط البئر: ينبطها نبطًا، استخرج ماءها. والنبط: أول ما يظهر من ماء البئر إذا حفرت. وإنما سمي الأنباط نبطًا لاستنباطهم ما يخرج من الأرضين[٤]. والمقصود بما يستخرج من الأرض الماء والإنتاج الزراعي الذي نحن بصدد تناوله في هذه الدراسة.

أصل الأنباط:

والأنباط من عرب شمال الجزيرة العربية، وهم أقرب الدول القديمة إلى عرب الحجاز[٥]. ويؤكد الدكتور جواد علي[٦] على أن مملكة الأنباط عربية، نشأت قبل الميلاد في المنطقة الشمالية الغربية من جزيرة العرب. والأنباط قوم كان لهم نفوذ وسلطان، وصوت مسموع وكلمة ثم إذا هم من الذاهبين.

والرأي السائد بين الباحثين أن الأنباط قوم من العرب وإن استعملوا في كتاباتهم الآرامية، بدليل أن أسماءهم هي أسماء عربية خالصة، وأنهم يشاركون العرب في عبادة الأصنام المعروفة عند عرب الحجاز، مثل (ذي الشرى) و(اللات) و(العزّى)، وأنهم رصعوا كتاباتهم بالآرامية بكثير من الألفاظ العربية، وأطلق اليونان كلمة (عرب) على الأنباط، و أطلقوا اسم (العربية الحجرية) على أرضهم[٧]. وفي ضوء ذلك أطلق الباحثون التقليديون كلمة (عرب) على الأنباط، وأطلقوا مصطلح "العربية الحجرية" على أرض الأنباط. ولو لم يكن الأنباط عربًا لما أطلق الباحثون التقليديون الذين يسميهم الدكتور جواد علي "الكلاسيكيين" كلمة عرب عليهم. وكانوا يدخلون بلادهم في ضمن البلاد العربية، ويجعلونها جزءًا من أجزائها. وقد فند الدكتور جواد علي جميع الآراء التي تنكرت لهذا الرأي ولا تراه. فهم عند جواد علي عرب، بل هم في نظره أقرب إلى قريش وإلى القبائل الحجازية التي أدركت الإسلام من العرب الذين أطلق عليهم (عرب الجنوب)[٨].

فهؤلاء الأنباط عرب أصحاب حضارة، عاشوا في "العربية الحجرية"، وفي مناطق أخرى خضعت لنفوذهم. كما عاش فرع آخر منهم في تدمر[٩]. وتشير النصوص إلى أن مملكة الأنباط شملت في أوج أيامها دمشق والأقسام الجنوبية الشرقية من فلسطين، ومنطقة حوران، ومنطقة خليج العقبة، وجزءًا من ساحل البحر الأحمر. وثبت أن جماعة من الأنباط سكنت الأقسام الشرقية من دلتا النيل[١٠].

والذي يهمنا في هذا الأمر، أن الأنباط كوّنوا دولة في جنوب بلاد الشام (عاصمتها بطرا)، في المنطقة التي تدعى الآن "شرق الأردن" سنة

٥٨٧ ق.م ومدّوا نفوذهم إلى ما يجاورهم من البلاد والمدن؛ فأصبحت عاصمتهم في القرن الأول قبل الميلاد ملتقى القوافل القادمة من غزة، وبصرى، وأيلة، والخليج العربي. وقد حفروا الآبار وأقاموا مشاريع المياه، وخزنوا مياه الأمطار في صهاريج صخرية يملؤونها بمياه الأمطار ويحكمون سدها، لكي يستفيدوا منها وقت الحاجة. وحوّلوا بعض المناطق الصحراوية إلى أراضٍ زراعية زرعوا فيها أنواعًا متعددة من النباتات والأشجار، ومنها شجرة[١١] الزيتون التي سنتناولها في هذه الدراسة.

حذق الأنباط في علم الفلاحة:

تشير النصوص بوضوح إلى أن الأنباط كانت لهم دراية كافية، وحذق كبير وواسع في حرفة الفلاحة، وأن عددًا كبيرًا منهم كان يمارس هذه الحرفة بإتقان. فالذي يقرأ كتب "الفلاحة"، ومنها كتاب **الفلاحة النبطية** يدرك المدى الواسع الذي وصل إليه الأنباط في علم الفلاحة، التي هي من العلوم النافعة، وقدرتهم على استنباط ما عجز عنه غيرهم من الأمم[١٢]. ويعترف ابن خلدون[١٣] أن للأنباط آثارًا علمية كثيرة استفاد العالم منها، ومن هذه الآثار "الفلاحة"، فأخذ الناس من هذا العلم الشيء الكثير وتفننوا فيه. وتشير النصوص إلى أن الأنباط اهتموا بشجرة الزيتون لأنها أبقى النبات وأطوله مدة وثباتًا، وأكثره للناس منافع، وأعزه بركة.

وربط الأنباط الفلاحة بكوكب زحل الذي له أثر كبير في عمارة الأرضين وإصلاح النبات. وأدرك الأنباط أن شجرة الزيتون تزهو ويزدهر ثمرها في البلدان المعتدلة المناخ، أو المائلة عن الاعتدال إلى البرد، التي تكون

تربتها قليلة التخلخل، وأن هذه الشجرة لا تفلح في بلدة يسافتها الشمس، وإن نبتت فيها كانت ضعيفة(١٤).

معالجة شح ثمر الزيتون:

عالج الأنباط شح ثمر الزيتون وقلة ورق الشجرة بطريقة بسيطة وناجحة وغير مكلفة للفلاّح؛ ذلك أنهم عمدوا إلى أخذ مقدار كف من ثمر الزيتون الأسود الناضج ووضعوه في أصل شجرة الزيتون التي يلاحظون أنها حالت، أو أن حملها بدأ يقل وتقل أوراقها، بعد أن يزيحوا التراب عن أصل الشجرة. ثم ما يلبثون أن يعيدوا التراب إلى وضعه السابق كي يغطي ثمر الزيتون الذي وضع عند أصل الشجرة، ويسكبون عليه مقدارًا مناسبًا من الماء، ويكررون سكب الماء ليلتين متتاليتين، ثم يتركونه واحدًا وعشرين يومًا. وبعدئذ يجد الفلاح النبطي أن شجرة الزيتون التي عالجها بهذه الطريقة قد كثرت أوراقها، واشتبكت أغصانها، وغلظت عروقها، وغاصت في الأرض، فيكون ذلك سببًا في طول بقائها وكثرة مكثها، وزكاة ثمرها وكثرته، بحيث يصبح أضعاف ما كانت تجود به الشجرة قبل المعالجة، وأن الثمرة إذا بلغت ونضجت لا تسودّ كما تسودّ ثمرة شجرة لم تُعالج، بل يكون الثمر مصفرّ اللون في البياض الذي يشوب غيره.

وعالجوا شجرة الزيتون التي تذبل وتكاد تموت، بأن يضعوا تحتها سراجًا كبيرًا، أو نفاطة عظيمة، ليلة السبت، وليلة الأحد والاثنين، والثلاثاء؛ لأن ضوء النار يوافقها موافقة عجيبة، ويحييها حياة سريعة، لأن هذه طبيعتها. أو يرش على الشجرة بالفحم في كل يوم من هذه الأيام

الزيت المخلوط بالماء بنسبة ٥٠٪ فإن هذه الشجرة ترجع إلى الحياة والطراء والسلامة، وتنمو نموًا حسنًا[١٥].

وكان الأنباط يقاومون الحشرات الضارة التي تصيب الأشجار عامة، وشجرة الزيتون خاصة بعدة طرق. منها أنهم كانوا يحفرون حول أصل الشجرة حفرة كهيئة الخندق مدورة، ثم يضعون في هذا الخندق اثني عشر غصنًا من شجر الورد ويضرمون فيها النار كي تحرق عن آخرها. و لم يكتفوا بذلك، بل كانوا يعمدون إلى ضرب شجرة الزيتون أربع ضربات بخشبة غليظة بمقدار ما لا ينكسر من أغصانها شيء؛ وهم يرمون من وراء ذلك أن يجعلوا الحشرات التي على أغصان الشجرة تتساقط في النار الملتهبة في الخندق. فإذا احترقت هذه الأغصان يدوسون بقاياها بأرجلهم حتى تتداخل مع التراب الذي هو في أصل شجرة الزيتون، إذ ربما وجدت فيه بعض الحشرات التي لم تصلها حرارة النار إلى الدرجة التي تميتها، وهم بعملهم هذا لم يهدفوا إلى مكافحة الحشرات التي تصيب شجرة الزيتون فحسب، وإنما كانوا يهدفون أيضًا إلى الحصول على نوع جديد من ثمر شجر الزيتون، ذلك أن "ابن وحشية" ذكر أن شجرة الزيتون التي تعالج بالطريقة التي استعرضناها توًا، تحمل زيتونًا ناصع البياض، ويبقى على ذلك البياض إلى بلوغه. وإن عصر قبل البلوغ أو بعده، خرج منه الزيت كأنه عسل، ولا يكون هذا في الزيت سواد، ولا احتراق كسائر أدهان الزيت.

ولديهم طريقة أخرى عالجوا فيها شجرة الزيتون فتحمل زيتونًا كبير الحجم، طيب الطعم، كثير الدهن، يكاد يقطر من كثرة دهنه؛ ذلك أنهم كانوا يضعون في الخندق الذي حفروه حول أصل شجرة الزيتون ثلاث

حزم من الخشخاش الأبيض[١٦] يكون في كل حزمة أربع عشرة خشخاشة مع قضبانها وورقها، ثم يعملون به كما سبق أن استعرضنا في حرق أغصان شجر الورد، والدوس بالرجل وما إلى ذلك[١٧].

وإذا أرادوا أن يغيّروا طعم ثمر شجر الزيتون، حتى يصير طعمه مثل طعم شجر الجوز، ويصبح حجمه أكبر من البندق قليلا، ويسودّ لونه سوادًا شديدًا، كانوا يأخذون من ورق الموز مقدارًا ما، ومن ورق شجر الجوز، ويلفّون في كل ورقة من ورق الموز "موزة"، وفي كل ورقة من ورق الجوز "جوزة"، ويلفّ ذلك لفًّا جيّدًا، ثم يحفر الفلاح في أصل شجرة الزيتون حفرة مدورة، كما تدور الشجرة، ثم يطرح ذلك في تلك الحفرة، ويطمرها بالتراب، ويداس التراب عليها جيّدًا، ثم يصب عليها شيء من الماء بمقدار سقي شجرة، ثم يترك يومًا وليلة، ثم يعاود ويصب عليه مثل ذلك، ويدعه يومين وليلتين، ثم يصب عليه أيضًا مثل ذلك، ويدعه أربعة أيام بلياليهن. ثم يأخذ بعد ذلك بجمر كبير فيه نار، فيدخن تحت الشجرة بقشور الجوز ست ساعات تمضي من الليل أو النهار، تدخينًا دائمًا، ثم يدع القشور تدخن، وينصرف تمام اليوم والليلة. ومن هذه الخطوات كانوا يحصلون على ثمر زيتون ذي لون أسود وكثير الدهن، وطعمه أطيب من طعم الجوز[١٨].

تطعيم شجرة الزيتون

يبدو أن الأنباط أتقنوا فن تطعيم الأشجار، ومنها شجر الزيتون، وقد ساروا في هذا الاتجاه بخطوات دقيقة ومدروسة كي يظهر عندهم أنواع جيدة وذات إنتاجية عالية نوعًا وكمًا. ولكي لا يدخل على التطعيم عوارض وعلل، كانوا يأخذون من شجرة الأترج غصنًا بكلاّب (سكين)

حادّ، على هيئة رأس القلم الذي يكتب به الكاتب[١٩]، على أن يكون هذا الغصن على هيئته وامتلائه وقوة مائه، وسليمًا من الذبول والضرر، ورقيقًا لأن الغصن الرقيق يقبل الرطوبة وتندفع فيه المادة سريعًا[٢٠]. وبعدئذ يأتي الفلاّح إلى شجرة الزيتون فيقطع من أغصانها غصنًا وليكن أخذه والفجر زايد في الضوء. وينبغي للفلاح أن يرصد يومًا طيبًا معتدل الهواء لكي يقوم بهذا العمل[٢١]. ثم يحفر في وسط موضع القطع حفرًا يكون بمقدار ما يغوص فيه الغصن الذي قطع من الأترج[٢٢]، بحيث يلصق الجلد بالجلد حتى لا يمتاز بعضه عن بعض إذا أنزل في الشق، وعلى هيئة الشق تكون البرية حتى ينـــزل الغصن المراد تركيبه نزولاً محكمًا كأنه مخلوق فيه، ثم يربط بخيط الصوف[٢٣]. ثم يرش الفلاّح على الموضع بفيه قليلاً من الماء، وبعدئذ تسقى شجرة الزيتون قليلاً. وكان الأنباط يفضلون أن تتم عملية التركيب هذه في شهر شباط، أو في الأول من آذار. وبعدئذ يورق غصن الأترج، ويثمر بعد سنتين أو ثلاث سنين أترجًا لطافًا على شكل الزيتون، ويكون لونه بين الحمرة والصفرة إذا بلغ، وذا رائحة زكية، وممكن أن يستخرج منه زيت حاد الرائحة، طيب مع الحدة، يُكسب الشَّعر لونًا أسود كأنه مخضب بسواد، وكأن صاحبه لم يفارقه شباب[٢٤].

وكان الأنباط يعتقدون أن شجرة الزيتون تجود في حملها في الأرض البيضاء اللينة التي مساماتها مفتوحة كي يسري فيها الماء. وكانوا يفضلون غرس شجر الزيتون في شهر أكتوبر (تشرين الأول) أو مار (آذار)؛ حيث يؤخذ وتد (قلم) الزيتون ويهيئ المكان الذي يغرس فيه القلم فيوضع فيه ويردّ عليه التراب بحيث لا تملأ الحفرة ليكون الماء فيها مستقرًا[٢٥].

وقد يكثر شجر الزيتون بغرس نواة ثمرة الزيتون، والوقت المفضل هو شهر تشرين الأول، حيث تؤخذ نواة ثمرة شجرة الزيتون المختارة التي لم يمسسها الملح، وتغرس في المكان المخصص. وكانوا يفضلون أن تكون التربة الخفيفة المدمنة التي مساماتها مفتوحة يسري فيها الماء ويخترقها بسرعة. ويتوقعون أن يثمر هذا الغرس بعد أربعة أعوام(٢٦).

منافع الأترج المركّب على شجر الزيتون

أدرك الأنباط أن دهن الأترج المركّب على شجرة الزيتون يسكّن وجع الأسنان، وإذا تمضمض الشخص به، ودلكت اللثة بالإصبع دلكًا كثيرًا فإن من شأن ذلك أن يسكّن وجع الأسنان ويقوي اللثة؛ واستدلوا على أنه لا ضرر من تسرب شيء من دهن الأترج إلى المعدة، بل على العكس من ذلك، إذ فيه فوائد جمة. فإذا ابتلع منه إنسان شيئًا طرد الريح عن معدته، وما قاربها وأصلحها(٢٧).

وتلمسوا أن من منافع هذا الدهن أنه يزيل الصفرة عن الوجه، وعن سائر البدن إذا دهن به الوجه، وتمرّح فيه في الحمام، وكرر هذا الحال سبع مرات. كما أنه يطرد الريح من المفاصل والأحشاء، ويقوي الأعصاب الضعيفة، ويزيل الرعشة في العنق واليدين وغير هذه المواضع(٢٨).

ويمزج هذا الدهن مع دهن بنسبة اثنتين إلى واحدة مع جزء من الشمع بقدر دهن الزيت، ثم يرش على هذا المزيج ورد مطحون جيّدًا، فتدلك القروح بخرقة خشنة نظيفة دلكًا رقيقًا حتى تحمر، ثم يطلى عليها هذا المزيج طلاء ثخينًا، ويجلس المريض في الشمس، أو في حمام، لمدة ساعة أو أكثر

قليلاً، ويترك المزيج على القروح يومًا كاملاً، ثم يغسله. ويتوقعون أن يبرأ المريض إذا أعاد ذلك ثلاث أو أربع مرات[٢٩].

ومن منافع هذا الأترج أنه يصلح المعدة من فسادها إذا أكل، إن كان مصدر هذا الفساد من البرد أو الرطوبة أو الريح الغليظة. ويقوي قابليتها على الهضم، بحيث يمكنها من إنفاذ الطعام منها. وإذا أكل الأترج مع قشره يشد اللثة، ويقوي القلب، ويزيل الخفقان، ويقطع اللعاب السائل من الفم في النوم، ويقوي الأعصاب والمفاصل[٣٠].

أثر الريح على النبات

أدرك الأنباط أن للريح أثرًا فاعلاً على النبات، لا سيما شجر الزيتون، وأدركوا أن الهواء المار فوق البحر يوافق إنبات شجرة الزيتون، في حين لا يوافقها الهواء الشديد البرودة؛ إذ أيقنوا أن هواء البحر مرطب؛ فإذا مر على الأرضين والبراري والقفار أكسبها شيئًا من الترطيب الذي يؤدي إلى إنبات الكلأ. قال ابن وحشية[٣١]: "إن الأنباط أدركوا أثر الهواء والماء وبعض الكواكب على النباتات ما لم يدركه غيرهم من الأمم، كما أدركوا أن للهواء والمناخ أثرًا مباشرًا على طبائع البشر، وأنهم علموا أن بعض النبات يفلح في بلد، ولا يفلح في آخر، وأرجع سبب ذلك إلى هبوب الرياح، واختلاف الهواء والمناخ، والترب والمياه، وبُعد الشمس والقمر ومدارهما وقُربهما. وذكروا أنه ربما اتفق إقليمان، أحدهما شرقي والآخر غربي، في الهواء والمناخ والسمت، فأفلح الإنبات في هذا ما أفلح في ذلك[٣٢].

وأدركوا أن النبات يتأثر بفعل طبيعي، وفعل عرضي، وهم يستنتجون من ذلك أن النبات لا يتأثر بالهواء وحده، بل قد تشاركه مؤثرات أخرى، فتتركب المؤثرات تركيبًا كثيرًا يصعب حصره والإحاطة به[٣٣]. وأدرك الأنباط أن شجرة الزيتون تنبت (في البلدان التي تسامتها زحل وما وافقه من الكواكب)[٣٤]. وأن هذه البلدان يكون البرد عليها أغلب من الحر، واليبس أكثر فيها من الرطوبة، فيكون ماؤها وتربتها موافقين لهاتين الطبيعتين وغرسها.

وتبدو دقة عناية الأنباط بشجرة الزيتون أنهم حددوا لون الفلاّح الذي يتولى غرسها وعمره، فقالوا: وليكن "أسمر اللون أو أسود، ولا يكون سنه إلا فوق الثلاثين سنة إلى الشيخوخة"[٣٥]. ومن المؤكد أنهم كانوا يرمون من وراء ذلك أن يكون الشخص الذي يتولى غرس أشجار الزيتون ذا تجربة كافية وممارسة كافية، تكسبانه خبرة في ميدان غرس الشجر ورعايته؛ وبذلك يكون غرسه مضمون النتائج، وإن احتمال نجاح غرسه أكبر من احتمال إخفاقه. وهذا يؤدي بالنتيجة إلى عدم الإهدار في الوقت وضياعه. وفي الوقت نفسه يؤدي أيضًا إلى عدم ضياع جهد الفلاّح الذي بذله في عملية الغرس، هذا فضلاً عن عدم حصول إهدار آخر في مال الفلاّح الذي صرفه في تهيئة النبتة المراد غرسها.

وشَدّدوا في الحيطة والاحتراز، كانوا يشيرون إلى حجم الحفرة التي يراد غرس الشجرة فيها، ورش تلك الحفرة بالماء، ثم تتم عملية وضع النبتة في المكان المحدد، ويوارى عليها التراب. وبعدئذ يدوس الفلاّح برجليه دوستين أو ثلاث، ثم يعمل على سقيها وإمدادها بالماء[٣٦]. وكانوا يعمدون إلى صب كمية من الزيت مخلوط بمثله من الماء العذب على أصل الشجرة

المغروسة؛ لأن ذلك يزيد من تثبيت الشجرة، ويدفع الآفات الزراعية عنها. فإذا أثمرت الشجرة، فبعد سبع سنين من بدء عطائها الثمر، ينبغي أن يلقط الفلاّح حملها للسنة الثامنة فيجمع من كل أصل حمل، ثم يحفر له حفيرة ويُدفع في أصلها، لأن من شأن ذلك أن يعجل في نموها، ويزيد في ورقها وثمرها، وتزداد فروعها وورقها وثمرها أكثر عندما يرش عليها الفلاّح شيئًا من الزيت المخلوط بالماء. يأخذ الفلاّح شيئًا منه في فيه، ثم يرشه عليها(٣٧).

خواص شجرة الزيتون الطبية

توصّل الأنباط إلى معرفة خواص عديدة لشجرة الزيتون. ومن تلك الخواص التي توصّلوا إلى معرفتها، أن عروق الشجرة ممكن أن تسكّن ألم الضرس بمجرد أن يعلق(٣٨) المريض شيئًا من هذه العروق على ضرسه يسكن عنه الألم مدة تسع ساعات من الزمان ونحوها، وكانوا يسكنون ألم الرأس الذي يصيب الإنسان بأن يطبخوا شيئًا من ورق الزيتون بالماء ويتضمد به الذي يشتكي من رأسه، فيسكن الوجع. وبهذه الطريقة نفسها كانوا يعالجون من يشتكي من أسنانه. وقد عرفوا أن ورق شجرة الزيتون المطبوخ بالماء يشد اللثة ويقويها، وأنه إذا صب المزكوم على رأسه شيئًا من ماء عروق وورق الزيتون المطبوخ بالماء خلل رطوبة رأسه وجفف الزكام، وإن انكب على بخار هذا الماء وصبر على ذلك حتى يبرد الماء وينفذ بخاره، أحدر الرطوبة من الرأس إلى المنخرين، وأجراها أسفل، وعلموا أن ذلك دواء جليل لهذه العلة. وعالجوا طنين الأذن عند الإنسان بأن جعلوا المريض يتبخر بعروق شجر الزيتون مع شيء من ورقها، ويكبون أذن المريض على الدخان، فإن من شأن ذلك إزالة طنين أذن المريض(٣٨).

ومن خلال شجرة الزيتون وعروقها، عالج الأنباط مسألة نضج الدماميل والأورام؛ ذلك أنهم كانوا يدفنون أترجة، كما هي، في أصل شجرة الزيتون بحيث تمس الأترجة عروق الشجرة، ثم يطمرونها بالتراب، ولا يصبون عليها ماء. ويقومون بعملهم هذا في الوقت الذي يكون القمر مقارنًا عطارد في برج الجوزاء. وبعد سبعة عشر يومًا تنبت في ذلك الموضع نبتة تشبه نبات الأرز، تشتعل بالنار وهي رطبة[٣٩] خضراء. إن هذه النبتة فيها منافع ومضار للإنسان*، ومن منافعها أنها تعمل على إنضاج الدماميل والأورام بعد أربع ساعات من وضعها على المكان الذي يراد إنضاجه (الدمامل)؛ حيث كانوا يجففون هذه النبتة ويدقونها في هاون، ويسكبون عليها شيئًا يسيرًا من بول البقر، ويضمد بها الدماميل، فتزيد من نضجها وسرعة انفتاحها[٤٠].

وعالج الأنباط في النبتة المشار إليها قبل قليل، حين يخلطونها بورق السداب البري، ويدقان جميعًا أخضرين. فإن سقي المريض الذي يشكو عسر البول من عصارة هذا الخليط وزن دانقين[٤١]، أطلق البول في ساعة من الزمان[٤٢].

واعتقد الأنباط أن من أخذ غصنًا من زيتون خاليًا من الورق الأصفر، رأس كل هلال شهر، وجففه وأوقده في مجمر من طين، وسخنه بجمرها، فإن القائم بهذه العملية تندفع عنه الآفات، ولا يزال مسرورًا في نفسه وفي سائر أحواله، ولا يرى عياله بؤسًا على مقدار حاله وحالهم. وإن تكرار هذه الحال من شأنها أن تدفع من أفراد تلك الأسرة إعلال الرأس، ويزيد في ضوء أبصارهم[٤٣].

واعتقد الأنباط أن زيت الزيتون يمكن أن تعالج به أجفان العيون الرطبة والغليظة بأن يكتحل المريض بالزيت فيقوى بصره. وعالجوا بالزيت وجع الأرحام الذي يصيب بعض النساء، واعتقدوا أن زيت الزيتون ممكن أن يمنع الحمل إذا تحملته المرأة قبيل الجماع، وكانوا يعالجون البواسير والأورام بالزيت أيضًا. واعتقدوا أن هذه الأفعال متأتية من الخاصية التي أعطاها الخالق ﷻ لشجرة الزيتون(٤٤).

أسباب هلاك شجر الزيتون

١- تعرض شجرة الزيتون للعطش

أدرك الأنباط أسباب هلاك شجر الزيتون، وتلمسوا أن أول العوامل التي تؤدي إلى هلاك شجرة الزيتون تعرض الشجرة للعطش، عطشًا مفرطًا(٤٥). ومن المؤكد أن جميع النبات لا يتحمل العطش المفرط، لكن الأنباط فطنوا إلى أن شجر الزيتون يتميز عن بقية الأشجار، ذلك أنه إذا تعرض للعطش المفرط حدث فيه داء يسمى "اليرقان"، وداء يسمى "قنطاسا". وعلموا أن شجر الزيتون إن شرب ماء كثيرًا بعد شدة العطش، فإن هذين الداءين يخف تأثيرهما، لكن الشجر لا يسلم منهما، أو من أحدهما؛ فاليرقان يؤدي إلى حصول اصفرار في ورق الشجرة، لا سيما في أطراف الأغصان وأعاليها، وما لطف من الورق وبخاصة الذي مازال بمنـــزلة اللب. ووجدوا أن هذا الداء يؤدي إلى إضعاف شجرة الزيتون، ويجعل ثمرها ذا مذاق مر، ويقلل من مقدار الدهن في الثمرة. وعلموا أيضًا أن علاج هذا الداء أو إزالته عن الشجرة إما بنـــزول مطر عظيم وغزير يدوم عليه فيقلع هذا الداء عن الشجرة، أو إن كان شجر الزيتون في بلد قليل الأمطار عمدوا إلى أخذ

ماء من نهر جار عذب خفيف طيب المذاق فيصب الماء على الشجرة، أو يرش عليها رشًا كثيرًا متتابعًا حتى تبتل كلها كما يبلها المطر. ويداوم الفلاّح على هذه الحال اثنين وأربعين يومًا، يرشها رشًا كثيفًا يومًا ويتركها يومًا حتى تكون أيام الرش اثنين وأربعين يومًا، وأيام الأغباب (التراد) اثنين وأربعين يومًا مثلها، فيكون جملة ذلك أربعة ثمانين يومًا. وإن خلط بالماء شيء يسير من الزيت كان العمل أجود وأبلغ، فإن زال الاصفرار عن الشجرة أوقف الفلاّح عملية الرش، وإن لم يزل يعاود العمل يومًا ثم يليه يوم أغباب (انقطاع) حتى يزول الاصفرار والضعف عن الشجرة المصابة(٤٦).

وعرف الأنباط داء ثانيًا يصيب شجرة الزيتون هو "قنطاسا"، وهو داء شديد ومؤذٍ للشجرة؛ وقد يكون أصله من العطش الشديد الذي تتعرض له شجرة الزيتون. وربما تصاب به الشجرة من ملوحة الماء الذي تشربه الشجرة. وقد ميز الأنباط هذا السبب عن السبب الأول، حيث عرفوا أن ملوحة الماء الذي تسقى به شجرة الزيتون يؤدي إلى انفتال ورق الشجرة وانقلابه، ثم ما يلبث أن يجف ويتساقط، ويذبل ما بقي منه في الشجرة. وربما حالت الشجرة عن الحمل، وإن حملت كان حملها متحشفًا ضارًا وضامرًا من جانبيه، عديم الدهن بعد البلوغ والاسوداد قليل الماء أيضًا. ومن حسن طالعهم أنهم عرفوا علاجه، فكانوا يغلون للشجرة المصابة ماء حارًا أو يجعلون الماء في الشمس حتى يسخن، وهو أجود وأفضل. ثم يقومون برش الماء الساخن أو صبه على الشجرة المصابة حتى تبتل كما تبتل من المطر الغزير، ويحفر حولها على بُعد ذراع ونصف من أصلها كهيئة خندق على تدوير الشجرة، ويصب فيها ماء صاف عذب قد سخن بالنار حتى

ذهب سدسه، ويصب على الماء حين تسخينه مقدار قليل من الزيت، وليسخن مع الماء شيء من "الكرنب"[٤٧] المقطع صفارًا، فيلقى على الماء ليغلي معه، وبعدئذ يرش على الشجرة المصابة، ويصب في أصلها حتى يقوم بمقدار ذراع من السُّمْك، وتعاد هذه العملية حتى يزول المرض[٤٨].

٢- هبوب ريح من الجنوب الشرقي

ووجد الأنباط أن شجرة الزيتون قد تمرض ويقل ثمرها نتيجة هبوب ريح من بين الجنوب والمشرق، ودوام هبوبها، فتصاب الشجرة بداء ويقل حملها[٤٩]. فكانوا يعالجون هذه الحالة بدق كمية من ورق الزيتون، ووضع هذه الكمية مع مقدار نصفها من الماء، ثم يوضع على هذا الخليط كفين (بورق) ويطبخ هذا الخليط حتى يغلي غليانًا شديدًا حتى تخرج قوة البورق فيه، ويتحلل البورق كله، ثم ينـــزل عن النار ويترك إلى أن يبرد، وبعدئذ يرش على الشجرة المصابة منه حتى تبتل أوراقها وأغصانها. ولن تحتاج هذه الشجرة إلى أن تعالج بهذه الطريقة أكثر من مرتين أو ثلاث حتى يزول عنها الداء، وترجع إلى وفرة الحمل كما كانت[٥٠].

٣- تعرض شجرة الزيتون إلى بول دب أو ذئب

وتوصّل الأنباط إلى معرفة عامل آخر يؤدي إلى إصابة شجرة الزيتون؛ فتمرض فينقص حملها، وتتغير أغصانها عن الغضاضة والطراء، وتذبل، واستدلوا على أن سبب هذا المرض متأتٍّ من حالة تبوّل دب أو ذئب على أصل شجرة الزيتون فتصاب بداء يؤدي إلى الحالة التي ذكرناها توًا وقد جرب الأنباط طريقة استطاعوا بها القضاء على هذا الداء والحد من تأثيره على شجرة الزيتون، إن عرفوا المكان الذي أصابه البول بعينه، وتم غسله

جيدًا بماء المطر، أو بالرش الكثيف. ولكن ربما يكون الحيوان قد بال في موضع، وسال البول إلى غير ذلك الموضع، فتلوثت من الشجرة مواضع عدة يصعب عليهم تحديد أماكنها، فعندئذ يعمدون إلى علاج هذه الحال، بأن يؤخذ الدب أو الذئب الذي بال على الشجرة، إن عرف بعينه، وإلا فيؤخذ دب غيره أو ذئب غير ذلك الذئب فيخنق حتى يموت، ثم يحرق عند أصل الشجرة حتى يرتفع قتاره إليها. وإن تعذر عليهم ذلك، كانوا يأخذون من قضبان الكروم وورقه مقدارًا معيّنًا، ويرش عليها شيء من الخمر وتحرق تحت الشجرة، وبعد انتهاء عملية الحرق يدفن الرماد في أصل الشجرة، وبذلك يزول هذا الداء عنها[٥١].

٤- بطء نمو شجرة الزيتون وتأخر حملها

وفطن الأنباط إلى أن شجرة الزيتون أحيانًا يبطئ نموها، ويتأخر حملها عن وقته بعد غرسها، أو أن سمتها يخرج عن مثيلاتها، كأن تكون أوراقها منقلبة، وثمرها شديد القبض، بطيء النضج، أو هي متغيرة عن حال الشجرة الطبيعية بأي ضرر كان. ففي هذه الحال أدركوا ضرورة معالجة هذه الظاهرة، واستدلوا إلى أن عملية المعالجة تتم بأن تؤخذ كمية من عظام السمك النهري الكبير، وتدفن هذه العظام في الخندق الذي حفر حول أصل الشجرة المصابة، وينهال عليها التراب، وبعدئذ يصب عليها الماء. وأحيانًا كانوا يوقدون فوق التراب الذي طمرت به عظام السمك شيئًا من النار، ثم تسقى الشجرة بعد يومين. فإن هذا الإجراء كان كفيلاً بإزالة الداء ورجوع الشجرة إلى حالتها الطبيعية[٥٢].

٥- عندما تمس الشجرة نجاسات

اعتقد الأنباط أن شجرة الزيتون لا يوافقها أن تمسها امرأة حائض ولا نجسة بإحدى النجاسات، ولا رجل نجس أيضًا. ومن النجاسات أحدهما قد مس ميتًا من أي من الحيوانات، وأشدها نجاسة الإنسان الميت. فمتى ما مست الشجرة امرأة أو رجل نجس من أي ضرب من ضروب النجاسات فإن هذه الشجرة عند ذلك تحول عن الحمل، وإن حملت فإن حملها يكون رديئًا[٥٣].

٦- إصابة شجرة الزيتون بالفطر

لاحظ الأنباط أن شجرة الزيتون قد تصاب بداء من جراء نبت فطر قاتل في أصل الشجرة؛ وهذا الفطر يكون أسود وأغبر شديد الغبرة. واستدلوا إلى أن سبب ذلك أن امرأة حائض قد مستها، أو مسها رجل نجس، فعرفوا أنه ينبغي أن تعالج بوصفة فصّلها ابن وحشية في كتاب **الفلاحة النبطية**[٥٤].

وأدرك الأنباط أن نجاح غرس شجرة الزيتون واستعمال الأدوية لعلاجها ودفع ما يندفع عنها من الأمراض والعوارض لم يكن متساويًا في كل البلدان بل هو مختلف في أحيان كثيرة، وأن ما مارسوه في هذا المجال هو ما كان موافقًا للإقليم الذي تقع به بلادهم. أما الأقاليم الأخرى التي تختلف عن إقليم بلادهم في الحر، والبرد، والرطوبة واليبوسة، فهي قد تحتاج إلى معالجات أخر. وكان بإمكان الأنباط أن يستعرضوا موضوع الفلاحة في كل الأقاليم، غير أنهم خشوا أن يعظم حجم ما دوّنوه، ويخرج عن حد الاعتدال المحمود الذي هو يتوسط بين غاية الطول وغاية القصر[٥٥].

وعرف الأنباط، منذ وقت مبكر، ما إذا كان حمل شجرة الزيتون في السنة القادمة حملاً كثيرًا أم لا؛ حيث كانوا ينظرون إلى الورقتين اللتين تكونان في نهاية الأغصان، وهما أصفرا اللون، فإذا رأوهما منقلبتين كأنهما مفروكتان، أو كأنهما مائلتان إلى خلاف جهة خروجهما، وكذلك ما تحتهما من الورق الأخضر الصفار، فإن الشجرة تحمل في تلك السنة حملاً كثيرًا وافرًا. وإن رأوا الورق كما هو منتصب، على الحال التي تكون عليها الورقة لم يتغير عن ذلك، فإن حملها في تلك السنة خفيف نزر. وإن رأوا في أطراف الأغصان والورق الذي في أطرافه شبيه بالذبول والاسترخاء، فإن هذه الشجرة تحول في تلك السنة عن الحمل(٥٦).

واعتقد الأنباط أن في شجرة الزيتون خواص كثيرة، ولها أخبار طريفة، وفيها أعمال نفيسة، هي أضعاف ما سبق أن ورد في كتب الفلاحة، ومنها **الفلاحة النبطية**. ومن هذا المنطلق اعتمد ابن وحشية وانتقى ما صح عنده بالتجربة، وثبت عنده بالقياس الصحيح، أو ما كان مأثورًا عند قدماء الأنباط، وما قدّمه علماؤهم الموثوق بعلمهم وصدقهم، وصحة حديثهم، واستنباطهم. ويحلو لابن وحشية أن ينعت كتاب **الفلاحة النبطية** بـــ"الشريف العظيم". ويبدو أن لهذا الكتاب منـــزلة مرموقة عند الأنباط؛ لأنه يتناول مسألة عمارة الأرض، وإفلاح منابتها وأشجارها. وتعدّ حرفة الفلاحة عند الأنباط من الحِرف المهمة، وأن الذين يزاولون الفلاحة هم عماد الدنيا، وهم الذين لم يتم للملك ملك، ولا لسوقه تسوق، ولا للصناع صناعة إلا بعد وجودهم، مع سلامتهم ودأبهم في عملهم الذي هو مادة الحياة. وربط الأنباط مسألة معروفة قدر العمال الذين يحترفون الفلاحة

ومسألة رضى الله؛ لأن الله ﷻ يحب عمارة الدنيا ودوامها بالصلاح والفلاح والزيادة في العمارة.

وأخيرًا يمكننا القول إن الأنباط قدّموا لنا معلومات كثيرة، ودقيقة، وشاملة في مجال الزراعة، ولا سيما في حقل زراعة شجر الزيتون، واستثماره وتطعيمه وتحسين أنواعه، وزيادة إنتاجه، ومكافحة الآفات الزراعية التي تصيب شجرة الزيتون، واستثمار ثمرة الزيتون، واستخراج زيتها، واستعمالها في أمور طبية متعددة، وهي معلومات أساسية ومهمة يفترض أن يلم بها المزارعون.

واشتملت المعلومات على أمور دقيقة تناولت ري الشجرة، وتمهيد الأرض قبل زراعتها، ثم عملية الغرس، ووضع الأسمدة اللازمة، العضوية وغير العضوية، وإبادة الأعشاب الضارة التي قد تنبت قرب شجرة الزيتون، وتقليم الشجرة وعملية التطعيم وتشذيب الأغصان، والوقاية من الأمراض التي قد تصيب شجرة الزيتون، وطرق مكافحة هذه الأمراض إن أصابت الشجرة، وجميع الأعمال المتعلقة بالعناية بهذه الشجرة المباركة، فضلاً عن المعطيات الطبية والغذائية التي يمكننا أن نحصل عليها من ثمرة ورق هذه الشجرة.

وأخيرًا لا بد لي أن أقول إن المعلومات الغزيرة التي أحاط بها الأنباط في مجال الزراعة شكلت المادة الأساسية في تاريخ علم النبات، وعلم الزراعة، وإن لم تكن الوحيدة في هذا الميدان. غير أن معلومات الأنباط عن شجرة الزيتون تميزت بروح التجربة الشخصية، والمزاولة العملية المباشرة لعمليات زراعة شجرة الزيتون وتطعيمها وغرسها، وتكثير أنواع ثمرها وتحسينها، ومكافحة الآفات الزراعية التي قد تصيبها.

الهوامش:

* عضو هيئة التدريس بكلية الآداب، جامعة بغداد، بغداد.

(١) الرازي، محمد بن أبي بكر، **مختار الصحاح**، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٦٧م، ص٦٤٣.

(٢) الشيخ أحمد رضا، **معجم متن اللغة**، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦٠م، ٣٨٦/٥.

(٣) الزبيدي، محب الدين أبوالفيض محمد بن محمد ، **تاج العروس من جواهر القاموس**، تحقيق: عبدالكريم المغرباوي، المطبعة الجبرية، مصر، ١٩٨٨م، ١٢٩/٢٠.

(٤) ينظر: ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم، دار صادر، ودار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٥٦م، **لسان العرب**، ٢٨٨/٩ وما بعدها؛ جرجي زيدان، **العرب قبل الإسلام**، ٦٨.

(٥) العلي، د. صالح أحمد، **محاضرات في تاريخ العرب قبل الإسلام**، مطابع مؤسسة دار الكتب للطباعة والنشر في جامعة الموصل، الموصل، ١٩٨١م، ٤٣.

(٦) علي، جواد، **تاريخ العرب قبل الإسلام**، شركة الرابطة للطبع والنشر المحدودة، بغداد، ١٩٥٣م، ٣/٥و٩.

(٧) **تاريخ العرب قبل الإسلام**، ٩/٣؛ الملاح، د. هاشم يحيى، **الوسيط في تاريخ العرب قبل الإسلام**، دار الكتب للطباعة والنشر، الموصل، ١٩٩٤م، ١٢٠.

(٨) **تاريخ العرب قبل الإسلام**، ٩/٣ (ينظر: الأصفهاني، أبوالفرج علي بن الحسين، **الأغاني**، مطابع لوستاتسوماس وشركاه، القاهرة، ١٩٦٣م، ٦١/٥).

(٩) **تاريخ العرب قبل الإسلام**، ١١/٣-١٠.

(١٠) المصدر نفسه، ١٤/٣-١٥.

(١١) نفسه، ١٧/٣-١٨؛ العلي، **محاضرات**، ٤٢.

(١٢) ابن وحشية، أحمد بن علي القيسي، **الفلاحة النبطية**، منشورات معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية (فرانكفورت، ١٩٨٤م، ١/٥-٦).

(١٣) ينظر: **المقدمة**، لابن خلدون، طبع بالأوفست، مكتبة المثنى، بغداد، (د.ت) ٤٩٧.

(١٤) ابن وحشية، أحمد بن علي القيسي، **الفلاحة النبطية**، منشورات معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية، مطبعة كلية شتوتغارت، فرانكفورت، ١٩٨٤م، ١/١١-١٣.

(١٥) المصدر نفسه، ١/٧ و١٩.

(١٦) أنواع الخشخاش: الخشخاش الأبيض والخشخاش الأسود. والخشخاش البري والخشخاش المزروع. والأول أكثر فعالية. والخشخاش الأبيض يمكن أن يصنع منه خبز، وله خصائص، وهو مهدئ ومنوّم. (ينظر: توفيق، فهد، **موسوعة تاريخ العلوم عند العرب**، مركز دراسات الوحدة العربية ومؤسسات عبدالحميد شومان، بيروت، ١٩٩٧م، ١٠٦٣/٣.

(١٧) ابن وحشية، **الفلاحة النبطية**، ٢٠/١. (١٨) المصدر نفسه، ٢٠/١. (١٩) نفسه، ٧/١.

(٢٠) ابن بصال، أبوعبدالله محمد بن إبراهيم الطليطلي، **الفلاحة**، تطوان، ١٩٥٥م، ٩٦.

(٢١) ابن بصال، **الفلاحة**، **٩٦**.

(٢٢) ابن وحشية، **الفلاحة النبطية**، **٨/١**.

(٢٣) ابن بصال، **الفلاحة**، ٩٧.

(٢٤) ابن وحشية، **الفلاحة النبطية**، ٧/١-٨.

(٢٥) ابن وحشية، **الفلاحة النبطية**، ٨/١؛ ابن الحجاج الإشبيلي، أحمد بن محمد، **المقنع في الفلاحة**، تحقيق صلاح جرار وجاسر أبوصفية، منشورات مجمع اللغة العربية الأردني، عمان، ١٩٨٢م، ٨٦ و٩٢.

(٢٦) ابن الحجاج الإشبيلي، **المقنع في الفلاحة**، ٦١.

(٢٧) ابن وحشية، **الفلاحة النبطية**، ٨/١. (٢٨) المصدر نفسه، ٨/١.

(٢٩) نفسه، ٩/١. (٣٠) نفسه، ٩/١.

(٣١) نفسه، ١٤/١ (ينظر: ابن بصال، **الفلاحة**، ١٠١).

(٣٢) ابن وحشية، **الفلاحة النبطية**، ١٦/١؛ ابن الحجاج الإشبيلي، **المقنع**، ٨٨.

(٣٣) ابن وحشية، **الفلاحة النبطية**، ١٧/١. (٣٤) المصدر نفسه، ١٨/١.

(٣٥) نفسه، ١٨/١. (٣٦) نفسه، ١٨/١.

(٣٧) نفسه، ١٩/١. (٣٨) نفسه، ٢٧/١.

(٣٩) من المحتمل أن يكون سبب الاشتعال وجود زيت في ورق هذه النبتة.

(٤٠) ابن وحشية، **الفلاحة النبطية**، ٢٨/١.

* يعتمد صاحب كتاب **الفلاحة النبطية** أن لا يذكر مضار هذه النبتة، إذ قال: "إن قصدنا في هذا الكتاب منافع أبناء جنسنا لا مضارهم التي يجد الأشرار من الناس السبيل إلى التسلط بها والمضرة". ينظر: ابن وحشية، **الفلاحة النبطية**، ١/٢٨.

(٤١) الدانق: هو من وحدات الوزن الصغيرة. وهو أحد أجزاء الدرهم، ويساوي سدس الدرهم، وكان يساوي ثماني حبات وخمسا حبة من حبات الشعير (ينظر: المقريزي، **إغاثة الأمة بكشف الغمة**، تقي الدين أحمد بن علي، دار الوليد، حمص، (د.ت) ٥٠ و٥٧؛ المقريزي، **شذور العقود في ذِكر النقود**، تحقيق: محمد السيد بحر العلوم، المطبعة الحيدرية، النجف، ١٩٦٧م، ٥).

(٤٢) ابن وحشية، **الفلاحة النبطية**، ١/٢٨.

(٤٣) المصدر نفسه، ١/٢٩.

(٤٤) نفسه، ١/٣٣.

(٤٥) نفسه، ١/٢١؛ ابن بصال، **الفلاحة**، ٣٩.

(٤٦) ابن وحشية، **الفلاحة النبطية**، ١/٢١.

(٤٧) الكرنب: نبات له خصائص طبية، وهو ثلاثة أنواع: مزروع، وبري، وجزري. ويوجد نوع رابع في مصر ذو طعم مالح. (ينظر: فهد، **موسوعة تاريخ العلوم عند العرب**، مركز دراسات الوحدة العربية ومؤسسة عبد الحميد شومان، ٣/١٠٧١-٢٠٠٠.

(٤٨) ابن وحشية، **الفلاحة النبطية**، ١/٢٢.

(٤٩) المصدر نفسه، ١/٢٣؛ ابن بصال، **الفلاحة**، ١٠١.

(٥٠) ابن وحشية، **الفلاحة النبطية**، ١/٢٣.

(٥١) المصدر نفسه، ١/٢٣-٢٤.

(٥٢) نفسه، ١/٢٤.

(٥٣) نفسه، ١/٢٤.

(٥٤) ابن وحشية، **الفلاحة النبطية**، ١/٢٥.

(٥٥) المصدر نفسه، ١/٢٥-٢٦.

(٥٦) نفسه، ١/٢٦.

من شعراء اليمامة المغمورين: تُوَيت اليمامي

عبدالملك بن عبدالعزيز السَّلولي

حياته وأخباره وما بقي من شِعره

(٢)

بقلم: د. حمد بن ناصر الدخيِّل*

(٣)

الحاجب المحجوب

قال تُوَيت اليمامي:

البحر: الطويل

على أي بَابٍ أَطْلُبُ الإِذْنَ بَعْدَمَا حُجِبْتُ عنِ البابِ الذي أنا حاجِبُهْ!

التخريج:

لتُوَيْت اليمامي في **البيان والتبيين**: ٢/٣٥٩، ٣/٢٥٩.

ومن غير عزوٍ في **عيون الأخبار**: ١/٨٧، و**بهجة المجالس**: ١/٢٧١. وكتب به مستشهدًا أحمد بن علي البَتِّي[1] إلى أحد رؤساء العمال وقد حجب عنه. **معجم الأدباء**: ٣/٢٥٧.

الاختلاف في الرواية:

معجم الأدباء (الذي أنا صاحبه).

قافية الدال

(٤)

فريسة الغواني

البحر: المنسرح

مرّ تُوَيتٌ يومًا بسُعْدى بنت أزهر، وهي مع أترابٍ لها، فقلن لها: هذا صاحبُك، وكان دميمًا، فقامت إليه وقمن معها، فضربْنَه وخرَّقْن ثيابه، فاستعدى عليهن الوالي[٢]، فلم يُعْدِه و لم يقبل شكايته، فأنشأ يقول:

١- إنَّ الغَوَاني جرَّحْنَ في جَسَدي   من بعدِ ما قد فَرَغْنَ من كَبِدي

٢- وقد شَقَقْنَ الرداءَ ثُمَّتَ لم   يُعْدِ عليهنَّ صاحِبُ البَلَدِ

٣- لم يُعْدِنِي الأحولُ الْمَشُومُ وقد   أبصرَ ما قد صَنَعْنَ في جَسَدِي

التخريج:

الأغاني: ١٦٩/٢٣.

الاختلاف في الروية:

٢- في بعض نسخ **الأغاني** (عامل) بدل (صاحب).

الشرح:

٣- المشوم: تسهيل المشؤوم مراعاة للوزن.

(٥)

خذوا بدمي سعدى

بعد أن اعتدتْ سُعْدى وأترابها على تُوَيت، عُقد له في قلبها رقة؛ فكانت تتعرض له إذا مرّ بها، واجتاز يومًا بفنائها فلم تتوارَ عنه، وأرته أنها لم تره. فلما وقف مليًّا سترتْ وجهها بخمارها، فقال تُوَيت:

البحر: الطويل

١- ألا أيُّها الثارُ الذي ليس نائمًا   على ترة إنْ مُتَّ من حُبِّها غَدَا

٢- خذوا بدَمي سُعْدَى فَسُعْدَى مَنِيتُهَا   غداةَ النَّقَا صادَتْ فؤادًا مُقَصَّدَا

٣- بآيةِ ما ردَّتْ غَــداةَ لَقِيتُها   على طَرْفِ عَيْنَيْهَا الرِّدَاءَ المورَّدَا

التخريج:

الأغاني: ٢٣/١٦٩-١٧٠.

الاختلاف في الرواية:

١- في إحدى نسخ **الأغاني** (الساري) بدل (الثار).

الشرح:

١- تِرَةٌ: مِنْ وتَرَهُ يَتِرُهُ وَتْرًا وتِرَةً. والموتور: الذي قُتِلَ له قتيلٌ فلم يُدْرِكْ بدمه. **الصحاح** (وتر).

٢- مَنِيتُهَا: أُمْنِيَّتُهَا وهي ما تتمناه. والأُمْنِيَةُ واحدة الأماني.

مُقَصَّدًا: من قصدتُ العُودَ قَصْدًا: كسرته، وقد انْقَصَدَ الرمحُ، وتَقَصَّدَتْ الرماح: تكسَّرَتْ، والقِصْدَةُ: القطعة من الشيء إذا انكسر. **الصحاح** (قصد).

(٦)

قافية الراء

كُلّ شيءٍ هَدَر

قال تُوَيت في سُعْدى أم عمر:

البحر: الرمل

١- أرَّقَ العَيْنَ من الشَّوْقِ السَّهَرْ   وصَبَا القَلْبُ إلى أُمِّ عُمَرْ

٢- واعتَرَتْني فِكْـرَةٌ من حُبِّـهَا ويْحَ هذا القَلْبِ من طُولِ الفِكَرْ!

٣- قَـدَرٌ سِيـقَ فمـن يملكُهُ أينَ مَنْ يملكُ أَسْبَـابَ القَدَرْ!

٤- كُلُّ شيءٍ نَالَني من حُبِّـها -إن نَجَتْ نَفْسِي من الموتِ- هَدَرْ

التخريج:

الأغاني: ١٧٣/٢٣.

الاختلاف في الرواية:

٢- في بعض نسخ **الأغاني** (ذِكْرَةٌ) بدل (فكرة)، و(ذِكَرْ) بدل (الفكر).

قافية الفاء

(٧)

يا بِنْتَ أزْهَرَ

وقال في سُعْدى:

البحر: الكامل

١- يا لَلرِّجَالِ لقلبكِ المتطرِّفِ والعينُ إنْ تَرَ بَرْقَ نَجْد تَذْرِفِ

٢- ولحاجةٍ يومَ العَبِيرِ تَعَرَّضَتْ كَبُرَتْ فَرُدَّ رسولُها لم يُسْعَفِ

٣- يا بنتَ أزهرَ ما أراكِ مُثيبَتي خيرًا على وُدِّي لكمْ وتَلَطُّفي

٤- إنِّي وإن خُبِّرْتِ أن حَيَاتَنَا في طَرْفِ عَيْنِك هكذا لم تَطْرُفِ

٥- لَيَظَلُّ قلبي من مخافة بَيْتِكمْ مِثْلَ الجناحِ مُعَلَّقًا في نَفْنَفِ

٦- ولَيَظَلُّ في هَجْرِ الأَحِبَّةِ طالبًا لِرِضَاكِ مما جَارَ إنْ لم تُسْعِفِ

٧- كأخي الفلاةِ يَغُرُّهُ من مائها قِطَعُ السَّرَابِ جرى بقَاعٍ صَفْصَفِ

٨- أهْرَاقَ نُطْفَتَهُ فلمَّا جاءَهَا وَجَدَ المنيَّةَ عندها لم تُخْلِفِ

التخريج:

الأغاني: ٢٣/١٧٣-١٧٤.

الاختلاف في الرواية:

١- في إحدى نسخ **الأغاني**: (والعينُ إن تَرْقَأْ بِجِدٍّ تَذْرِفِ).

٦- في نسخة من **الأغاني** (مجرى) بدل (هجر).

الشرح:

٤- تطرف: طرَفَ بصَرهُ من باب ضرب: إذا أطبق أحد جَفْنيه على الآخر. **مختار الصحاح** (طرف).

٥- نَفْنف: مهوى بين جبلين. **الصحاح** (نفف).

قافية القاف

(٨)

نَفْسٌ تَقَسَّمتْ شَعَاعًا

وقال في سُعْدى:

البحر: الطويل

١- ألاَ في سبيلِ اللهِ نَفْسٌ تَقَسَّمَتْ	شَعَاعًا وقَلْبٌ للحِسَانِ صَدِيقُ
٢- أفاقَتْ قلوبٌ كُنَّ عُذِّبْنَ بالهَوَى	زَمَانًـــا وقَلْبي ما أراهُ يُفيـــقُ
٣- سَرَقْتِ فُؤَادي ثم لا تُرْجِعينَهُ	وبعضُ الغواني للقُلُوبِ سَرُوقُ
٤- عَزوفُ الهوى بالوَعْدِ حتى إذا جَرَتْ	بِبَيْنِك غِرْبــانٌ لهنَّ نَعيــقُ
٥- وَرُدَّتْ جِمالُ الحيِّ وانْشَقَّتِ العَصَا	وآذَنَ بالْبَيْنِ الْمُشتِّ صَدوقُ
٦- نَدِمْتِ على ألاّ تَكُوني جَزَيْتِني	زعمْتِ وكُلُّ الغَانيَاتِ مَذُوقُ
٧- لعلكِ أنْ نَنْــأى جميعًــا بِغُلَّةٍ	تَذُوقِينَ من حَرِّ الهوى وأذوقُ

٨- عصيتُ بكِ النَّاهِينَ حتى لوَ انَّني أموتُ لما أرْعَى عليَّ شَفيــقُ

التخريج:

الأغاني: ١٧١/٢٣.

الاختلاف في الرواية:

٥- في بعض نسخ **الأغاني** (رَدَدْتِ).

الشرح:

١- نفْسٌ شَعَاعٌ: تفرَّقتْ هِممها. **الصحاح** (شعع).

٦- مَذُوق: لا يخلص الودّ. **الصحاح** (مذق).

٧- الغُلّة والغُلّ: حرارة العطش. **الصحاح** (غلل). أراد بها حرارة الحب.

٨- لما أرعى: لما رحمني وعطف عليّ.

قافية اللام

(٩)

قتيل الهوى

قال عبدالله بن شبيب: لقي تويتٌ سُعْدَى راحلةً نحو مكةَ حاجّةً، فأخذ بخِطَامِ بعيرِها، وقال:

البحر: الكامل

١- قل للَّتي بَكَرَتْ تريدُ رحيلا للحجِّ إذْ وجَدَتْ إليه سَبيلاَ

٢- ما تَصْنَعينَ بحَجَّة أو عُمْرَةٍ لا تُقْبَلاَن وقد قَتَلْتِ قتيلاَ

٣- أحْيِي قتيلَكِ ثم حُجِّي وانْسُكِي فيكونَ حَجُّك طاهرًا مقبولاَ

فقالت له: أرسلِ الخِطَام، خيّبك اللهُ وقبَّحَكَ، فأرسَلَهُ وسارت.

التخريج: **الأغاني**: ١٧٠/٢٣.

(١٠)

دَمي لها حَلالٌ

ومن مُخْتَارِ قولِه فيها:

البحر: الوافر

١- سلِ الأطْلالَ إنْ نَفعَ السؤالُ وإنْ لم يَرْبَعِ الركْبُ العِجَالُ

٢- عن الْخَوْدِ التي قَتَلَتْكَ ظُلْمًا وليسَ بها إذا بَطَشَتْ قتَالُ

٣- أصَابَكَ مُقْلَتَان لهـــا وجيدٌ وأشْنَبُ بَارِدٌ عَذْبٌ زُلَالُ

٤- أعارَكِ ما تَبَلْت به فُؤادي من العَيْنَيْنِ والجِيدِ الغَزالُ

٥- أيَا ثَاراتِ مَنْ قَتَلَتْهُ سُعدى دَمي -لا تَطْلُبوه- لها حلالُ

٦- أَرِقُّ لها وأُشْفِقُ بعد قَتْلي على سُعْدى وإنْ قَلَّ النَّوَالُ

٧- وما جـــادَتْ لنا يومًا بِبَذْلٍ يمينٌ من سُعــَادَ ولا شَمَالُ

التخريج:

الأغاني: ١٧٢/٢٣.

الشرح:

١- يَرْبَعُ: يُسْرِعُ. والرَّبَعَةُ: أشدُّ عَدْوِ الإبل. يقال: مرَّ البعيرُ يَرْتَبعُ إذا ضرَبَ بقوائمه كلها. **الصحاح** (ربع).

٣- الشَّنَبُ: بَرْدُ الفَمِ والأسنان وعذوبتهما. **الصحاح** (شنب).

(١١)

قافية النون

حُبٌّ من طرف واحد

قال أبوالفرج الأصبهاني: ومن مختار قولِ تُوَيت في سُعْدى هذه مما أخذته من رواية عبدالله بن شبيب من قصيدة أولها:

البحر: الوافر

١- سنُرْضِي في سُعَيْدَى عَاذلِينَا   بعاقبةٍ وإنْ كَرُمَتْ عَلَيْنَا

يقول فيها:

٢- لقيتُ سُعَيْدَ تَمْشِي في جِوَارٍ   بجَرْعَاءِ النَّقَـــا فَلَقِيتُ حَيْنَا

٣- سَلَبْنَ القَلْبَ ثم مَضَيْنَ عَنِّي   وقد ناديْتُهُـــنَّ فما لَوَيْنَا

٤- فقلْتُ وقد بَقيتُ بغيرِ قَلْبٍ   بقلبي يا سُعَيْدى أين أيْنَا؟

٥- فما تَجْزِينَ يا سُعْدى مُحبًّا   يهيمُ بكمْ ولا تَقْضِينَ دَيْنَا

٦- فقالوا: إذا شَكَوْتَ المَطْلَ منها   لَعَمْرُكَ من سمعتَ له قَضَيْنَا

٧- ومَنْ هذا الذي إنْ جاءَ يشكو   إلينا الحبَّ من سَقَمٍ شَفَيْنَا

٨- فهنَّ فواعِــلٌ بي غيرَ شَكٍّ   كما قَبْلي فَعَلْنَ بصاحِبَيْنَا

٩- بِعُرْوَةَ والذي بسهامِ هِنْدٍ   أُصِيبَ، فما أُقِدْنَ ولا وَدَيْنَا

التخريج:

الأغاني: ٢٣/١٧١-١٧٢.

الاختلاف في الرواية:

٤- في نسخة من **الأغاني** (بغير لب).

٦- في بعض نسخ **الأغاني** (فقالتْ). وعلى هذه الرواية ينبغي أن تكون التاء في شكوت للمتكلم.

وفي نسختين أخريين (به) بدل (له).

الشرح:

٢- الجَرْعاء: الأرض ذات الحزونة تشاكل الرمل. وقيل: هي الرملة السهلة المستوية. وقيل: هي الدَّعص لا تنبت شيئًا. ومثلها الْجَرَعة، والْجَرْعة، والْجَرَع، والأجْرَع. وتجمع الجرعاء على جرعاوات. **اللسان** (جرع).

النَّقَا مقصور: الكثيب من الرمل، تثنيته: نَقَوان ونَقَيَان. **الصحاح** (نقا).

الحَيَن: الهلاك.

٣- فما لوينا: فما عطفنا وملنا. يريد أهم تجاهَلْنه.

٩- عروة: هو عروة بن حزام العذري، أحد الشعراء العشاق الذين قتلهم العشق، وصاحبته عفراء بنت مالك العذرية.

أخباره في **الشِعر والشعراء**: ٦٢٢-٦٢٧، **والأغاني**: ٢٣/٣٠٠-٣١٦. ومصادر ترجمته وأخباره كثيرة تغني عن ترجمته هنا.

صاحب هند: عبدالله بن العجلان بن الأحب بن عامر النهدي، شاعر جاهلي، من سادات قومه هو وأبوه، أحد المتيّمين الذين قتلهم العشق، وهند كانت زوجته، وهي من بني نهد. وكانت من أحب الناس إليه، وأحظاهم عنده، فمكثت معه نحو سبع سنين أو ثمان لا تلد، فأجبره والده على طلاقها، فطلّقها وهو مكره، وتزوجتْ رجلاً من بني نمير، فتبعتها نفسه واشتد وله، وأصبح دنفًا يقول فيها الشِعر ويبكيها حتى مات حزنًا عليها، وهو من شعراء الحماسة.

الأغاني: ٢٢/٢٤٥-٢٥٤، **ومصارع العشاق**: ٢/٢٧، **وذمّ الهوى**: ٥٠٣، **وتزيين الأسواق**: ١/١٤٠-١٤٤.

(١٢)

ماء الرَّكِيِّ لا يُرْوِيني

وقال في سُعْدى:

البحر: الخفيف

١- ما تزالُ الديارُ في بُرْقة النَّجْـــ ... دِ لِسُعْدى بقَرْقَرَى تُبْكِينِي

٢- قد تحَيَّلْتُ كي أرى وجْهَ سُعْدى ... فــإذا كلُّ حيلــةٍ تُعْيِينِــي

٣- قلتُ لما وقفْتُ في سُدَّةِ البــا ... بِ لسعدى مقالةَ المسْكِينِ:

٤- افْعَلي بي يا ربَّةَ الخدر خيرًا ... ومن الماءِ شربــةً فاسْقِينِي

٥- قالت: الماءُ في الرَّكِيِّ كثيرٌ ... قلت: ماءُ الرَّكيِّ لا يُرْوِيني

٦- طَرَحَتْ دُونِيَ الستورَ وقالتْ: ... كُلَّ يــومٍ بِعِلَّــةٍ تَأْتِينِــي

التخريج:

الأغاني: ١٢٣/١٦٨، و**معجم البلدان** (برقة النجد) ٣٩٨/١.

الاختلاف في الرواية:

٢- في نسخة من **الأغاني** (تمحَّلْتُ) بدل (تحيلْتُ).

في **معجم البلدان** (أن) بدل (كي).

٥- في نسخة من **الأغاني** (لا يكفيني) بدل (لا يرويني).

الشرح:

١- برقة النجد: موضع في قرقرى في اليمامة، ولا يعرف الآن. **معجم البلدان** (برقة النجد)، و**معجم اليمامة**: ١٤٧/١-١٤٨.

٥- الرَّكي: مفردها رَكِيَّة، وهي البئر، وتجمع أيضًا على ركايا. **الصحاح** (ركي)، والقياس: ركيّات.

الهوامش:

* أستاذ في قسم الأدب، بكلية اللغة العربية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، المملكة العربية السعودية.

(١) أبوالحسن أحمد بن عليّ البَتِّي الكاتب، نسبة إلى البت، وهي بلدة من أعمال بغداد، وقيل: موضع في نواحي البصرة. كاتب شاعر، أَلَمَّ بعلوم كثيرة، قرأ القرآن وحفظه على شيوخ عصره، وسمع الحديث، مليح المحاضرة والمفاكهة، يميل إلى الدعابة، تُرْغب مجالسته، كتب للخليفة القادر بالله، وكان صاحب الخبر والبريد في ديوانه، وحظي عند بهاء الدولة البويهي، له مؤلفات ذُكرت في ترجمته، توفي عام ٤٠٥هـ، وقيل: عام ٤٠٣هـ، ورثاه الشريفان الرضي والمرتضى.

تاريخ بغداد: أبوبكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي، دار الكتاب العربي، بيروت، نسخة مصورة عن الطبعة الأولى، القاهرة، ٤/٣٢٠؛ **الأنساب** (البتي): أبوسعد عبدالكريم بن محمد السمعاني، تعليق عبدالله عمر البارودي، ط١، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، دار الكتب العلمية ودار الجنان، بيروت، ١/٢٨١.

المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (حوادث ١٤٠٣هـ): أبوالفرج عبدالرحمن ابن علي بن الجوزي، تحقيق محمد عبدالقادر عطا ومصطفى عبدالقادر عطا، ط١، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م، دار الكتب، بيروت، ١٥/٩٣.

معجم الأدباء: ياقوت بن عبدالله الحموي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، نسخة مصورة، ٣/٢٥٤-٢٧٠.

معجم البلدان (البت): ياقوت بن عبدالله الحموي، ط١، ١٣٧٦هـ/١٩٥٧م، دار صادر ودار بيروت، بيروت، ١/٣٣٤.

اللباب في تهذيب الأنساب (البتي): ابن الأثير عزالدين علي بن محمد الجزري، دار صادر، بيروت، ١/١٢٠.

الوافي بالوفيات: صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، تحقيق مجموعة من المحققين، ط١، ١٣٩٩-١٤١٣هـ/١٩٧٩-١٩٩٣م، فيسبادن فرانز شتاينر، شتوتغارت، ٧/٢٣١-٢٣٤.

(٢) ولاة اليمامة في عهد بني أمية كثيرون، ولم أهتد إلى معرفة واليها المقصود هنا، ولو حُدّد بتاريخ معيّن لكانت معرفته يسيرة. ووصف تُوَيت هذا الوالي بأنه أحول مشؤوم وربما يكون سفيان بن عمرو العقيلي الذي تولى اليمامة في عهد سليمان بن عبدالملك (٩٦-٩٩هـ) ثم تولاها في عهد سليمان أيضًا نوح بن هبيرة. قال يحيى بن أبي حفصة في سفيان:

لقد عصاني ابنُ عمرو إذْ نصحتُ له ... ولو أُطِعْتُ لما زلَّتْ به القَـدمُ

لو كنتُ أَنْفُـخُ في فَحْمٍ لقد وَقَدَتْ ... ناري ولكنْ رمـادٍ ما له حَمَـمُ

الحمم -بالتحريك- الرماد والفحم وكلّ ما احترق من النار، الواحدة حُمَمَة: **الصحاح:** أبونصر إسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق أحمد عبدالغفور عطار، ط٢، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، دار العلم للملايين، بيروت، (حمم). يشير إلى خروج ولاية اليمامة من يده. ويتفق معنى البيتين مع وصف تُوَيت إياه بأنه مشؤوم.

تاريخ خليفة ابن خياط: تحقيق د. أكرم ضياء العُمَري، ط٢، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م، دار القلم ومؤسسة الرسالة، بيروت، ٣١٩.

الأغاني: أبوالفرج الأصبهاني علي بن الحسين، ط٣، ١٣٨١هـ/١٩٦٢، دار الثقافة، بيروت، ١٠/٨٠.

معجم البلدان (برقان): ياقوت ابن عبدالله الحموي، ط١، ١٣٧٦هـ/١٩٥٧م، دار صادر ودار بيروت، بيروت، ١/٣٨٧.

ملامح من الإدارة ونظم الحكم في حمص

خلال العصر الأيوبي

بقلم: د. منى سعد محمد الشاعر*

لقد ساد النظام الإقطاعي بلاد الشام في العصر الزنكي، واستمر خلال العصرين الأيوبي والمملوكي، وكانت حمص قد اقتطعت لأسد الدين شيركوه حيث جمع بين إقطاعها ووزارة مصر عام ٥٦٤هـ/١١٦٨م، وسار الأيوبيون على درب أسلافهم الزنكيين في بلاد الشام، حيث استمر نظام الإقطاع الحربي نظامًا معمولاً به في تلك الآونة؛ وقد ساعد على ذلك حالة الجهاد المتواصلة مع الصليبيين آنذاك.

وعندما تولى القائد صلاح الدين أمور السلطنة بمصر في عام ٥٦٩هـ/١١٧٣م، تمكن بعدها من الزحف على بلاد الشام والاستيلاء عليها من أيدي نواب نور الدين محمود، وكان استيلاؤه على حمص في عام ٥٧٠هـ/١١٧٥م[1]؛ وقد قسم الأيوبيون البلاد إلى عدة أقاليم (إقطاعات) يضم كل منها عددًا من المدن والحصون، وقد كان لكل إقليم حاكم أو نائب يكون المسؤول الأعلى في إقليمه وممثل السلطان الشخصي الذي يرتبط به ويتلقى أوامره. ويمكن القول إن بلاد الشام قد قسمت إلى عدة قواعد كل قاعدة منها تعدّ مملكة شبه مستقلة بسلطانها، ومن بين تلك القواعد كانت حمص التي قام على أمورها أمير يحكمها في معظم الأحيان من قِبل سلطان مصر

والشام[٢]. ويؤكد ذلك القلقشندي، حيث يشير إلى أن مدينة حمص في عهد السلطان صلاح الدين كانت مملكة شبه مستقلة في حكمها لا يرجع حكامها فيما يحتاجون إليه من أمور إلا إلى السلطان مباشرة[٣]. أما بعد وفاة السلطان صلاح الدين وانقسام البيت الأيوبي بين أبنائه وظهور النـــزاعات والخلافات بينهم تغيرت أحوال حمص السياسية فأصبحت تابعة لدمشق التي كانت من نصيب الملك الأفضل نور الدين علي بن صلاح الدين[٤]، إلا أن هذا الوضع لم يستمر طويلاً؛ فقد استقلت حمص وغدت مملكة منفردة منذ قيام العادل الأيوبي صلاح الدين سلطانًا على مصر والشام (٥٩٦-٦١٥هـ/١٢٠٠-١٢١٨م)، ويدعم هذا قول صاحب **صبح الأعشى** عن حمص "وقد كانت في الدولة الأيوبية مملكة منفردة تارة وتضاف إلى غيرها أخرى"[٥].

وبالرغم من أن المصادر المعاصرة لا تمدنا بمادة تتحدث عن الإدارة ونظم الحكم بحمص في العصر الأيوبي إلا أنه يمكن القول إن حمصًا باعتبارها جزء من الدولة الأيوبية كانت تتبع ما كان سائدًا من نظم الدولة وإدارتها. وباستقراء المصادر المعاصرة، يمكن استنباط بعض ملامح ما كان سائدًا من نظم الحكم والإدارة في حمص خلال العصر الأيوبي وتصور ذلك وفقًا لما تتيحه تلك المصادر على النحو التالي:

١- الوالي أو النائب:

وهو الحاكم أو مِلك حمص من أسرة آل شيركوه، الذي كان يخول إليه حكم المدينة وأعمالها في معظم الأحيان حكمًا مستقلاً ومنفردًا ولا يرجع

إلاّ إلى سلطان البلاد في مصر أو الشام، وفي بعض الأحيان كان يتبع إداريًا ملِك دمشق ويتلقى أوامره[٦].

وتشير المصادر إلى أن حمص خضعت لحكم أسرة شيركوه عام ٥٥٤هـ /١١٥٩م، وذلك منذ أن أقطعها نور الدين محمود لأسد الدين شيركوه والذي كان أول حكامها، غير أنها انتزعت من أسرة شيركوه بعد وفاة أسد الدين شيركوه الذي كان قد تولى وزارة الخليفة العاضد الفاطمي في مصر، لذا فقد خشي نور الدين محمود من انتقال السلطة في مصر إلى صلاح الدين الذي تولى وزارة العاضد بعد وفاة عمه، لذلك أمر نور الدين محمود "بحل إقطاع أسد الدين وصلاح الدين، وأخذ حمص من نواب أسد الدين، وجمع أهله وأمرهم بالخروج إلى مصر تثقيلاً عليه"[٧]. ويشير أبو شامة أنه "لما عرف نور الدين استقرار أمر صلاح الدين بمصر أخذ حمص من نواب أسد الدين"[٨].

ولما تولى السلطان صلاح الدين السلطنة على مصر والشام، أعاد حكم حمص مرة ثانية إلى أسرة شيركوه، فولى ناصر الدين محمد بن شيركوه حكمها الذي اعتبر امتدادًا لوالده الملك أسد الدين شيركوه الكبير، وبهذا ثبتت أقدام أسرة شيركوه الأيوبية في حكم حمص خلال العصر الأيوبي حتى بداية العصر المملوكي، حيث حكم هذه المدينة وأعمالها أربعة ملوك[٩] هم على الترتيب:

١- الملك ناصر الدين محمد بن شيركوه (٥٧٠-٥٨١هـ/١١٧٥-١١٨٥م).

٢- الملك المجاهد أسد الدين شيركوه بن ناصر الدين محمد (٥٨١-٦٣٧هـ/١١٨٥-١٢٣٩م).

٣- الملك المنصور إبراهيم بن الملك المجاهد أسد الدين شيركوه (٦٣٧-٦٤٤هـ/١٢٣٩-١٢٤٦م).

٤- الملك الأشرف موسى بن الملك المنصور إبراهيم (٦٤٤-٦٦١هـ/١٢٤٦-١٢٦٣م).

مما سبق يتضح أن الملك الأشرف موسى بن الملك المنصور الأيوبي ظل على حكم حمص منذ أواخر العصر الأيوبي حتى بداية العصر المملوكي على عهد السلطان الظاهر بيبرس، وبذلك كان الملك الأشرف موسى آخر ملوك الأيوبيين من أسرة آل شيركوه الذين حكموا حمص، وبوفاته انتهى حكم الأيوبيين في حمص، حيث لم يكن له وريث يخلفه في حكمها، "ولم يكن له ولد ولا أخ ولا ولي عهد"(١٠).

هكذا انتقل حكم حمص -بعد وفاة الملك الأشرف موسى الأيوبي- إلى حكم المماليك الفعلي، وغدت حمص نيابة مملوكية، حيث أرسل إليها السلطان الظاهر بيبرس الأمير بدر الدين بيليك العلائي ليتولى نيابتها وأعمالها(١١) في عام ٦٦١هـ/١٢٦٣م لتصبح حمص منذ ذلك التاريخ نيابة مملوكية.

٢- الوزير:

شهدت حمص وجود منصب الوزارة بها. وقد كان وزير حمص يقوم مع نائبها على أمور النيابة، ويدل على ذلك ما ورد في المصادر من أنه قد وزر للملك المنصور إبراهيم صاحب حمص الصاحب نجم الدين أبو زكريا اللبودي الطبيب(١٢)؛ ويذكر ابن أبي أصيبعة أن الملك المنصور إبراهيم قد فوض إليه أمور دولته مما يمكن القول بأنه كان يتولى الوزارة كوزير تفويض(١٣)، إذ اعتمد عليه الملك المنصور صاحب حمص في كثير من أمور الدولة(١٤).

وفي عهد الملك الأشرف موسى قام على وزارة حمص وزيران، أحدهما مخلص الدين بن قرناص(١٥)، وقد كان وزير تفويض، حيث فوض إليه الملك الأشرف موسى تدبير أمور المملكة. وقد كان له دور كبير في سياسة حمص على عهد الملك الأشرف موسى، وكان هو الذي أشار على الملك الأشرف

موسى بالمحافظة على تقوية الصلة بينه وين السلطان الصالح أيوب[١٦]. أما الوزير الثاني فكان وزير تنفيذ[١٧] وهو الأمير حسام الدين لؤلؤ بن عبد الله الكاتب، وكان هذا الرجل أحد كتّاب الجيوش، ثم التحق بخدمة الملك الأشرف موسى صاحب حمص "وترقى عنده حتى كان مدار أموره عليه وهو في رتبة وزير صغير"[١٨].

٣- الكاتب:

تُعَدّ هذه الوظيفة من الوظائف الرفيعة المهمة في الدولة الإسلامية، لذا فقد كان يختار لها من عُرف بفصاحة اللسان وبلاغة القول، كما كان الكاتب يلازم السلطان في معظم مجالسه[١٩]؛ وقد ذكر ابن نظيف الحموي في حوادث ٦٠٤هـ/١٢٠٠م أن "الملك المجاهد قد سير كاتبه الشمس الكشغر يدي، وقد كان معلمه، إلى الملك الأفضل يطلب ابنته لابنه الملك المنصور إبراهيم"[٢٠]، مما يدل على وجود هذه الوظيفة بحمص.

والكتابة وظيفة قد استقرت أصولها وعرفتها معظم أقاليم الدولة الإسلامية، وكانت هذه الوظيفة مشهورة أيضًا في بلاد الشام. ولعل هذا يوضح أن حمص كان بها الكتاب وربما كان بها ديوان الإنشاء شأنها في ذلك شأن بقية المدن الإسلامية المهمة.

٤- كاتب الدرج:

وهو الذي يقوم بكتابة الولايات والمكاتبات وما ماثل ذلك مما تصدره الأبواب الشريفة السلطانية[٢١]، وقد وجدت هذه الوظيفة في حمص في العصر الأيوبي، وكان ممن تولى هذه الوظيفة الأمير علم الدين مسعود بن أبي الفضل، حيث تولى وظيفة كاتب درج للملك الأشرف موسى الأيوبي.

واستمر في منصبه هذا حتى في العصر المملوكي[٢٢] مما يدل على وجود هذه الوظيفة بحمص طوال العصر الأيوبي.

٥- وكيل بيت المال:

وهي وظيفة عظيمة القدر، وتعتبر إحدى الوظائف المهمة في الدولة الإسلامية، وموضوعها التحدث فيما يتعلق بمبيعات بيت المال ومشترياته من أراضٍ وأدر وغير ذلك والمعاقدة على ذلك وما يجري هذا المجرى؛ لذا فقد كان لا يتولاها إلا أهل العِلم والديانة، ويجلس وكيل بيت المال في دار العدل ويكون أحيانًا دون المحتسب، وتارة فوقه بحسب رفعة قدر كل منهما[٢٣]؛ وقد وجدت هذه الوظيفة بحمص في العصر الأيوبي مما يدل على وجود إدارة مالية بحمص آنذاك وإن لم تفصح المصادر عن ذلك صراحة. وممن تولى هذه الوظيفة بحمص عماد الدين بن صالح الغزي الدمشقي؛ فقد كانت هذه الوظيفة لا يتولاها إلا أهل العلم والمعرفة؛ لذا فقد كان عماد الدين هذا "من بيت الفضل والرياسة"[٢٤].

٦- السفراء والرسل:

كذلك كان بحمص من يترسل إلى الملوك والأمراء وهم السفراء. وقد ذكر ابن نظيف الحموي أن الملك المجاهد شيركوه، صاحب حمص، أرسل في عام ٦٠٤ هـ / ١٢٠٠م إلى السلطان العادل بمصر صبيًّا نصرانيًّا كان قد ربّاه وكبر عنده "ولاه ورسله إلى الملوك"[٢٥].

وكان من سفراء حمص أيضًا على عهد الملك المجاهد شيركوه الأمير بهاء الدين بن مروان بن قابيا، حيث يشير ابن نظيف الحموي أن الملك المجاهد شيركوه أرسله في عام ٦٢٧ هـ / ١٢٢٩م ليحضر ضمن "رسل

الديوان عند الكامل بالرقة"[٢٦]، وكان سبب مسير السلطان الكامل إلى الرقة في تلك السنة ما بلغه من استيلاء جلال الدين الخوارزمي على خلاط، وأثناء إقامة الكامل على الرقة وصلت الخلع من الخليفة العباسي إليه ومن ضمنها خلعة لبهاء الدين بن قابيا رسول الملك المجاهد صاحب حمص آنذاك[٢٧].

وظل بهاء الدين بن قابيا يعمل سفير حمص لدى السلطان الكامل حتى مات وهو مترسلاً من قِبل الملك المجاهد شيركوه لدى السلطان الكامل بمصر في عام ٦٣١ هـ / ١٢٣٣م[٢٨].

٧- الولاة:

ومن الوظائف المهمة أيضًا التي شهدها النظام الإداري بحمص تعيين الولاة في القلاع والمدن والأقاليم التابعة لها ليقوموا على نيابتها من قِبل ملك حمص[٢٩].

٨- الأجناد:

كان وجود الأجناد في حمص شأنها في ذلك شأن المدن الإسلامية الأخرى وخاصة لحماية أسوار المدن وقلاعها، وكان الملك المجاهد شيركوه قد أنشأ لذلك قلعة شميمس[٣٠]، ورتب فيها الولاة والأجناد، وحمل إليها الذخائر، كما اهتم حكام حمص بتعيين الولاة والأجناد بقلعة حمص وأولوها عناية كبيرة[٣١].

وهكذا قد يلمس الباحث من خلال المادة المتناثرة في المصادر إشارات وملامح لبعض نظم الحكم والإدارة في حمص خلال العصر الأيوبي يعمل فيها تحت سلطة ملك حمص عدد من كبار رجال الدولة كالوزير والكاتب

والسفير ووكيل بيت المال والولاة والأجناد إلى غير ذلك مما كان متبعًا وسائدًا في نظم الحكم الإدارة بالمدن الإسلامية.

الهوامش:

* عضو هيئة التدريس، قسم التاريخ والحضارة، كلية التربية للبنات بالرياض، الأقسام الأدبية، الرياض، المملكة العربية السعودية.

(١) ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، بيروت، ١٩٧٨م، ١٠٢/٩، ١٠٣؛ ابن واصل: **مفرج الكروب في أخبار أبي أيوب**، تحقيق: جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٥٣م، ٦٧/١، ١٦٨، ٢٣٢.

(٢) القلقشندي: **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، القاهرة ١٩١٨م، ٩١/٤؛ عماد الدين خليل: عماد الدين زنكي، بيروت ١٩٧١م، ٢٤٧.

(٣) **صبح الأعشى**، ٢٠٢/٤.

(٤) **مفرج الكروب**، ٣١/٣، ٣٢؛ المقريزي: **السلوك لمعرفة دول الملوك**، تحقيق: محمد مصطفى زيادة، القاهرة، ١٩٧١، ١٤٤/١، ١٤٥.

(٥) **صبح الأعشى**، ٢٠٢/٤.

(٦) **مفرج الكروب**، ٣١/٣، ٣٢؛ **صبح الأعشى**، ٢٠٢/٤.

(٧) ابن الفرات: **تاريخ ابن الفرات**، م٤، ٦٥/١.

(٨) أبو شامة: **الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية**، تحقيق: محمد حلمي محمد أحمد، القاهرة ١٩٦٢م، ٤٠٦/١.

(٩) **مفرج الكروب**، ٣٥/٢؛ ابن خلكان: **وفيات الأعيان**، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، ١٩٦٨م، ٤٧٩/٢-٤٨١؛ العيني: **عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان**، عصر سلاطين المماليك، تحقيق: محمد محمد أمين، القاهرة، ١٩٨٧م، ٢٤٤/١؛ الزبيدي: **ترويح القلوب في ذكر الملوك من بني أيوب**، تحقيق: صلاح الدين المنجد، دمشق ١٩٦٩م، ٣٩-٤٢.

(١٠) ابن شداد: **تاريخ الملك الظاهر**، تحقيق: أحمد حطيط، بيروت، ١٩٨٣م، ٣١٢؛ ابن عبد الظاهر: **الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر**، تحقيق: عبد العزيز الخويطر، الرياض، ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م، ١٨٦؛ المقريزي: **السلوك**، ٥٠٥/١.

(١١) ابن عبد الظاهر: **الروض الظاهر**، ١٨٦؛ ابن أيبك: **الدرة الزكية في أخبار الدولة التركية**، تحقيق أولرخ هارمان ، القاهرة ، ١٩٧١م، ١٠٦.

(١٢) الطبيب نجم الدين يحيى بن محمد بن عبد الواحد اللبودي الدمشقي الأصل الحلبي المولد، تعلم الطب على يد والده وبرع فيه، كما كان عالما في الهندسة والحساب والنحو، إلا أنه كان متبحرًا في دراسة الطب، ثم التحق بخدمة الملك المنصور إبراهيم ووزر له، انظر: ابن أبي إصيبعة: **الأنباء في طبقات الأطباء**، بيروت ١٩٨٧م، ٣/ ٣٠٣-٣١٠.

(١٣) وزير التفويض: هو الذي يفوض إليه معظم أمور الحكم بإمضائه واجتهاده فيحكم بنفسه، بل ويقلد الولاة والنواب ويعزلهم، أي له كل صلاحيات الإمام أو الملك أو الحاكم، لذا فوزير التفويض لا بد وأن يكون من أهل الكفاية فيما وكل إليه من أمري الحرب والخراج وخبرة بهما وبتفصيلهما وتنظيم أمور الدولة والسياسة بما يرجع إليه، انظر: الماوردي: **الأحكام السلطانية والولايات الدينية**، تحقيق: أحمد مبارك البغدادي، الكويت ١٩٨٩م، ٣٠،٣٤.

(١٤) **الأنباء في طبقات الأطباء**، ٣٠٣/٣، ٣٠٤.

(١٥) مخلص الدين بن إبراهيم بن قرناص: هو رجل من أكابر أهل حماة، كان معتقلا على عهد الملك المجاهد شيركوه، ثم أطلقه الملك المنصور إبراهيم من الحبس، ثم تولى وزارة حمص على عهد الملك الأشرف موسى بن المنصور إبراهيم، انظر: ابن واصل: **تاريخ الواصلين في أخبار الخلفاء والملوك والسلاطين**، مخطوط بدار الكتب المصرية، ميكروفيلم رمز تاريخ ٥٣١٩، ورقة ٣٥٠ ، ٣٥١ .

(١٦) ابن واصل: **تاريخ الواصلين**، ج٢ ورقة ٣٥٠، ٣٥١، اليونيني: **ذيل مرآة الزمان**، تحيق: دائرة المعارف العثمانية، الدكن، الهند، ١٩٥٤م، ٢١٠/٢، ٢١١؛ ابن أيبك: **الدر المطلوب في أخبار ملوك بني أيوب**، تحقيق: سعيد عاشور، القاهرة، ١٩٧٢م، ٣٦٢،٣٦٣.

(١٧) وزير التنفيذ: حكم هذه الوزارة أضعف وأصغر من وزير التفويض لأن النظر فيها مقصور على رأي الإمام أو الحاكم، فوزير التنفيذ واسطة بين الرعايا والولاة ويؤدي عن الحاكم ما أمر به وينفذ عنه ما ذكر ويمضي ما حكم ويخبر بتقليد الولاة وتجهيز الجيوش، أي أنه المنفذ لأوامر الحاكم، انظر: الماوردي: **الأحكام السلطانية**، ٣٤، وراجع: فتحية النبراوي: **تاريخ النظم والحضارة الإسلامية**، القاهرة ١٩٩٤م، ٧٠.

(١٨) اليونيني: **ذيل مرآة الزمان**، ٣١/٤، ٣٢؛ الكاتبي: **عيون التواريخ**، تحقيق: فيصل السامر ونبيلة عبد المنعم، العراق ١٩٨٤م، ٢٢٥/٢١.

(١٩) ابن خلدون: **مقدمة ابن خلدون**، بيروت ١٩٨٤م، ٢٤٦.

(٢٠) ابن نظيف الحموي: **التاريخ المنصوري**، تحقيق: أبوالعيد دودو، دمشق، ١٩٨٢م، ٥٤، وردت هذه الرواية أيضا في: ابن الفرات: **تاريخ ابن الفرات**، م٥ تحقيق: حسن محمد الشَماع، البصرة ١٩٧٠م، ٦٦/١ .

(٢١) القلقشندي: مصدر سابق، ٣٠/٤.

(٢٢) الصقاعي: تالي كتاب **وفيات الأعيان**، تحقيق: جاكلين سبلة، دمشق، ١٩٧٤م، ١٥٧، ١٥٨.

(٢٣) القلقشندي: مصدر سابق، ٣٦/٤ ، ٣٧.

(٢٤) الصقاعي: تالي كتاب **وفيات الأعيان**، ٩٢.

(٢٥) ابن نظيف الحموي:**التاريخ المنصوري**، ٥٤.

(٢٦) نفسه: ٢٦١ .

(٢٧) نفسه: ٢٦١ .

(٢٨) الصقاعي: مصدر سابق، ٩٢.

(٢٩) ابن نظيف الحموي: مرجع سابق، ٢٢٠، ٢٢١ .

(٣٠) أنشأ الملك المجاهد صاحب حمص قلعة شميمس في عام ٦٢٨هـ/١٢٣٠م بالقرب من سلمية، انظر: ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، ٣٧٨/٩؛ النويري: **نهاية الأرب في فنون الأدب**، ١٤٦/٢٩.

(٣١) ابن نظيف الحموي: مرجع سابق، ٢٢٠، ٢٢١ .

الشعراء الزبيريون في العصر العباسي

عبدالله بن مصعب: سيرته وما بقي من شِعره
(٢)

بقلم: د. محسن غياض عجيل*

(١) قال لابن عمه عبيد الله بن عروة:

١- نشدتُ عبيد الله عني ورهطَه	وعندهم منّي نُهًى وتجاربُ
٢- فأيُّ ابنِ عم كنتمُ تعلمونه	إذا قام خلف الباب ناهٍ وحاجبُ
٣- وطارت قلوبُ القومِ حتى كأنها	عصافيرُ في أجوافهم أو جنادبُ

جمهرة نسب قريش للزبير بن بكار، تحقيق الشيخ محمود شاكر، مصر، ١٣٨١هـ، ٣١١.

(٢) وقال في غناء أشعب:

١- إذا تمـــززتُ صُـــراحيّة	كمثل ريح المسك أو أطيبُ
٢- ثم تغنّـــي لي بأهـــزاجه	زيدٌ أخو الأنصار أو أشعبُ
٣- حسبت أني ملكٌ جالسٌ	حُفّت به الأملاكُ والموكبُ
٤- فلا أبالي وإله الـــورى	أشرّق العالم أم غرّبوا

في **الأغاني**، لأبي الفرج، دار الكتب المصرية ودار الثقافة، بيروت، ١٥/٣٠، ١٩/١٣٨، و**سمط اللآلي**، لأبي عبيد البكري، تحقيق العلاّمة الميمني، مصر، ١٩٣٦م، ٢/٩٥٩، و**نهاية الأرب**، للنويري، طبعة دار الكتب المصرية، ٤/٢٦،

و**عيون الأخبار**، لابن قتيبة، طبعة دار الكتب المصرية، ٥٢/٣، و**الحماسة البصرية**، لصدر الدين البصري، تحقيق مختار الدين أحمد، بيروت، عالم الكتب، ٣٨٨/٢ دون عزو.

وتمزز الشراب: تمصصه، والصراحية: آنية الخمر.

(٣) وقال:

١- شطّت ولم تُثِب الرَّبَاب ولعل للكَلِفِ الثوابْ

٢- نعب الغرابُ فراعني بالبين إذ نعب الغرابْ

الأغاني، ٢٣٦/٢٤.

(٤) وقال في زوجه خديجة:

١- كتبت خديجةُ في الكتاب تلُومُني أنّي أُملُّ ولا أكون الكاتبا

٢- فلأكتُبنّ بخط كفي طائعًا ولأعتِبَنَّ لئن سَلِمتِ العاتبا

جمهرة نسب قريش، ٢١٩.

(٥) وقال في جارية أحبّها:

١- يا جُملُ للواله المُستعبر الوَصِبِ ماذا تضمَّنَ من حزنٍ ومن نَصَبِ

٢- أنّى أُتيحتْ له للحَيْنِ جاريةٌ من غيرِ ما أمَمٍ منها ولا صَقَبِ

٣- جارية من أبي بكرٍ كلفتُ بها ممّن يَحُلُّ من الْحَصَّاء والحَوَبِ

٤- من غيرِ معرفةٍ إلاّ تعرُّضها حينًا لذلك إن الحين مجتلبي

٥- قامت تعرّضُ لي عمدًا فقلتُ لها يا عَمْرك الله، هل تدرين ما حسبي

٦- بين الحواريِّ والصدّيق في نسبٍ ينهى عن الفحش مثلي غير مؤتشَبِ

٧- ولا أدِبُّ إلى الجارات منسربًا تالله إني لعزهاةٌ عن الرّيَبِ

الأغاني ٢٣٨/٢٤، والأول والثاني في **سمط اللآلي** ٦٥٩/٢.

والأمم: اليسير القريب، والصقب: المجاور، والحوب: تخفيف الحوأب: ماء لبني بكر، والحصّاء: اسم مكان، وغير مؤتشب: غير مختلط، والعزهاة: العازف عن اللهو والنساء.

(٦) وقال:

١- مالي مرضتُ فلم يَعُدني عائدٌ   منكم ويمرض كلبكم فأعـــودُ
٢- وأشدُّ من مرضي عليّ صدودُكم   وصدودُ كلبكم عليَّ شديدُ
٣- قد والذي سمكَ السماءَ بقُدرةٍ   غُلب العزاءُ وأُدرك المجهـــودُ

سمط اللآلي ١/٥٧٠، والأول والثاني في **الكامل**، للمبرد، تحقيق د. زكي مبارك، مصر، ١٩٣٧م، ٢/٤٨٢، **والأغاني** ٢٤/٢٤١، والأول في **الحماسة البصرية** ٢/٣٨٨، **والعمدة**، لابن رشيق، تحقيق محيي الدين عبدالحميد، مصر ١٩٦٣م، ١/٤٦ **والمذاكرة في ألقاب الشعراء**، للنشابي، ٣٠، **ولطائف المعارف** للثعالبي ٣٢، ونسبها لابنه مصعب توهمًا.

(٧) وقال في المهدي وقد أهداه جاريةً:

١- أنجز خيرُ الناس قبل وعدِهِ
٢- أراحَ من مَطلٍ وطولِ كَدِّهِ

زهر الآداب، للحصري القيرواني، تحقيق علي محمد البجاوي، مصر، ١٩٥٣م، ١/٣٢٠، **ونور القبس**، للمرزباني، اختصار اليغموري، تحقيق زلهايم، فيسبادن، ١٩٦٤م، ٣١١.

(٨) وقال للمهدي يسأله البيعة لهارون الرشيد بولاية العهد، بعد ولي عهده موسى الهادي:

١- أشدُدْ بهارون حبال العَقْدِ

٢- ووَلِّه بعـــدَ وليّ العهـــدِ

جمهرة نسب قريش ١٢٩.

(٩) قال يرثي أبابكر بن يحيى بن حمزة الزبيري:

١- وَلِعَتْ دموع العين بالهَمْرِ لما نعـــى الناعـــي أبابكـــرِ

٢- لمصيبةٍ أبـــدتْ قوارعُهـــا في الصـــدرِ مثل تلهُّبِ الجمرِ

٣- ما نمت مرتفِقًا يضيـــقُ بما أخفيتُ من بُرَحائها صدري

٤- ليلَ التمـــام من العشاء إلى أن قيلَ قد طلعت ذُرى الفجر

٥- ماذا لقيتُ غـــداةَ يُخبرني ناعٍ نعـــاكَ لنا ولا يـــدري

٦- حتى رأى البُرَحاءَ تأخذني تَترى وواكفَ عبرةٍ تجـــري

٧- فلأحلفـــنَّ يمينَ مجتهـــدٍ بالْمُوجـــفين صبيحةَ النحـــر

٨- لا ينقضي حزني عليك ولا نعتاضُ مثلِك آخرَ الدَّهـــرِ

٩- من لا يـــذمُّ أخٌ خلائقَهُ أبدًا ولا يُخشـــى على غدرِ

١٠-بل تستقيـــم لهم طريقتُـــه ويزيـــدُ عندهمُ على الخَبـــرِ

جمهرة نسب قريش ٦٧.

(١٠) وقال يمدح المهدي ويستكثره في أول صحبته:

١- يا ابنَ الذي ورثَ النبيَّ محمدًا فَلَهُ تـــراثُ محمد لم يُنكَـــرِ

٢- إنّي عقدتُ ذِمامَ حبلي مُعْصِمًا بحبالِ وُدِّك عُقدةَ المتخيِّـــرِ

٣- يومَ المدينـــةِ بينَ قبرِ محمدٍ وفِنائـــه ومقامِـــه والمنبـــرِ

٤- فأخذتُ منك بذمـــةٍ محفوظة مَنْ فازَ منك بمثلها لم يُخفـــرِ

٥- فكأنّني ألقيـــتُ رحلي عائـــذًا بفنـــاءِ بيتِ الله أو بالمحجَـــرِ

٦- وأراك تصطنعُ الرجالَ ولم أكن دونَ امـــرئ قدمتَهُ بمؤخَّـــرِ

٧- فهل انت متخذي لنفسك جُنَّةً وعليَّ عهدُ اللهِ إن لم أشكرِ

٨- ولقد صبرتُ لنبوةٍ صاديتُها ممن يُلاقيـــني بخَدٍّ أصعَـــرِ

٩- في حومةٍ قَصفينَ من أشياعهِ يلقونـــني بتجهـــمٍ وتنكُّـــرِ

١٠- لَمَّا رأوك جفوتَني فتركتني إن آتِ أُقْصَ وإن أغبْ لا أُذكَرِ

١١- وإذا دخلتُ أكونُ آخرَ داخلٍ مَرْمَى القصيّة بالمكان الأوعرِ

١٢- فمجاهرٌ لي بالعداوةِ منهُمُ جهلاً، وطاوي غُلّةٍ لم يجهـــرِ

١٣- حَنِقٌ عليَّ ولا يزال ضميرُه يُبدي رسيسَ عداوةٍ لم تظهر

١٤- فإذا التقينا نَمَّ لي مِنْ طرفهِ نظرٌ يسارقُه كطـــرفِ الأخزرِ

١٥- واللهُ يعلمُ حلفةً من صادقٍ لولاكَ قد شَمَّـــرتُ ذيلَ المئزرِ

١٦- وبعثتُ حربي عنوةً فتضعضعوا ووسمتُ أنفَهُـــمُ مكانَ المفقَرِ

١٧- إنّي إذا بلغ العدوُّ حميتي فبرزتُ أمشـــي مشية المتبخترِ

١٨- رَئِمُوا المذلةَ صاغرين وحاذروا صولاتِ ذي لبدٍ هزبرٍ مُخدرِ

جمهرة نسب قريش ١٢٧-١٢٨، قال الزبير بن بكار: "وهي أكثر من هذا". وصاديتها: داريتها، والمصاداة: المداراة. وقصفين الازدحام والتجمع، ورئم المذل: لزمها مكرهًا، والمفقر: مكان خزم أنف الجمل لترويضه.

(١١) وقال متغزلاً:

١- فإن يحجبوها أو يَحُلْ دون وصلها مقالـــةُ واشٍ أو وعيـــدُ أميرِ

٢- فلن يمنعوا عينيّ من دائم البُكا ولن يُذهبوا ما قد أجنَّ ضميري

٣- إلى الله أشكو ما أُلاقي من الهوى ومن حُـــرَقٍ تعتادني وزفيـــرِ

٤- ومن حَرَقٍ للحبِّ في باطن الحشا وليلٍ طويـــلِ الحزن غيرِ قصيرِ

٥- سأبكي على نفسي بعين غزيرةٍ بكاءَ حزيـــنٍ في الوثـــاق أسيرِ

٦- وكنّا جميعًا قبل أن يظهر الهوى بأنعـــمِ حالَيْ غبطةٍ وســـرورِ

٧- فما برح الواشون حتى بدت لهم بطونُ الهـــوى مقلوبةً لظهـــورِ

٨- لقد كنتِ حسبَ النفسِ لو دام وصلُنا ولكنّما الدنيـــا متاعُ غرور

الأغاني ٩/٢٠٠ لقيس بن ذَريح، قال أبوالفرج: "هكذا في الخبر أنّ الشِعر لقيس بن ذريح، وذكر الزبير بن بكار أنه لجدّه عبدالله بن مصعب". والأبيات: ١، ٢، ٧، ٣ على الترتيب، لعبدالله بن مصعب في **الأغاني** ٢٤/ ٢٣٧، نقلاً عن الزبير بن بكار. وعلّق عليها أبوالفرج قائلاً: "وهذه الأبيات تنسب للمجنون أيضًا"، ولم يذكرها الزبير فيما ذكر من شِعر جدّه في **جمهرة نسب قريش، والأخبار الموفقيات.**

(١٢) وقال يخاطب أبا جعفر المنصور عند منصرفه من المدينة:

١- أرائـــحٌ أنت أبا جعفـــرٍ من قبل أن تسمعَ من بصبصا

٢- هيهاتَ أن تسمعَ منها إذا جاوزت العيسُ بك الأعوصا

٣- فخذ عليها مجلسيّ لذةٍ ومجلسًا من قبـــل أن تشخصا

٤- أحلـــفُ بالله يمينًـــا ومَنْ يحلـــفُ بالله فقـــد أخلصا

٥- لو أنّهـــا تدعو إلى بيعـــةٍ بايعتُهـــا ثم شققـــت العصا

الأغاني ١٥/٢٨، **ونهاية الأرب**، للنويري، طبعة دار الكتب المصرية، ٥/٧٣. بصبص: مغنية مشهورة في المدينة. والأعوص: اسم مكان.

(١٣) وقال:

١- وإنّي وإن أقصرتُ عن غير بغضةٍ لراعٍ لأســـباب المودةِ حافظُ

٢- ومازال يدعوني إلى الصرم ما أرى فآبى وتثنيني عليـــك الحفائظُ

٣- وأنتظرُ الإقبال بالودِّ منكمُ　وأصبرُ حتى أوجعتني المغانيظُ
٤- وأنتظرُ العُتبى وأُغْضِي على القَذَى　أُلاَينُ طـوراً مرةً وأُغالـظُ
٥- وجَرَّبتُ ما يُسْلي المحبَّ عن الصِّبا　فأقصرتُ والتجريبُ للمرء واعظُ

أمالي القالي ٢٥١/١.

(١٤) وقال يذكر دخوله على المهدي أثناء زيارته للمدينة، دون شفيع:

١- ولمّا أَوْجَهُ الشفعـاءُ قومًا　عَلاَ خطي فجَلَّ عن الشفيعِ
٢- وجاءَ يدافعُ الأركان عنّي　أبٌ لي في ذُرى ركـنٍ منيعِ
٣- أبٌ يتركـح الأبنـاءُ منه　إذا انتسبوا إلى الشرف الرفيعِ
٤- سعى فحوى المكارم ثم ألقى　مساعيـه إلى غير المُضيـعِ
٥- فورَّثني على رغم الأعـادي　مسَاعِيَ لا ألـفَّ ولا وضيعِ
٦- فقمتُ بـلا تَنحُّلٍ خارجيٌّ　إذا عُدَّ الفَعـالُ ولا بديـعِ
٧- فإن يكُ قد تقدّمني صنيـعٌ　يُشرِّفُني فمـا دَنَّى صنيعـي

جمهرة نسب قريش ١٢٥، **وتاريخ بغداد**، للخطيب البغدادي، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٧٣/١٠.

ويتركح: يستند ويعتمد، وركح إلى الشيء: ركن إليه، والركح: جانب الجبل وركنه، وفي **تاريخ بغداد:** يترنح. والألفّ: الثقيل البطيء في الكلام، والتنحّل: ادعاء المرء ما ليس فيه. والخارجي: الذي يخرج ويشرف بنفسه دون أن يكون له قديم سابق. والبديع: المحدث الذي يتعجب من أمره. ودَنّى: أي جعله دَنِيًّا خسيسًا.

(١٥) وقال:

١- إذا استمتعتُ منك بلحظ طرفي　حَيِـي نصفي وماتَ عليك نصفي

٢- تلذّذ مقلتي وينوب جسمي وعَيشي منـــك مقرونٌ بحتفي

٣- فلـــو أبصرتني والليـــلُ داجٍ وخدي قد توسّطَ بطنَ كفي

٤- ودمعـــي يستهـــلّ من المآقـــي إذن لرأيتَ ما بي فوق وصفي

الإمتاع والمؤانسة، للتوحيدي، تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين، بيروت، مكتبة الحياة، ١/١٤.

(١٦) وقال في عبدالله بن الحسن العلوي:

له حـــقٌ وليس عليه حـــقُ ومهما قالَ فالْحَسنُ الجميلُ

وقد كان الرســـولُ يرى حقوقًا عليـــه لغيره وهـــو الرســـولُ

الكامل، للمبرد، تحقيق د. زكي مبارك، مصر، ١٩٣٧م، ٢/٤٨٢، **وعيون الأخبار**، لابن قتيبة، طبعة دار الكتب المصرية، ٣/٢٠، دون عزو.

(١٧) وقال في زوجه خديجة بنت إبراهيم:

١- أُحِبُّ اللَّيلَ أنّي حينَ أُمسِي تُحدِّثُني فأفهـــم ما تقـــولُ

٢- أبُوهَا حينَ تَنْسُبُها حكيمٌ وجَدَّاهـــا علـــيٌّ والرســـولُ

٣- ويَنْمِيهَـــا الزبيرُ إلى المعالي أبٌ ضخـــمٌ لَهُ باعٌ طَويـــلُ

جمهرة نسب قريش ٢١٨. وقد ذكر الزبير بن بكار نسب جدته خديجة هذه، فذكر أن جدّها لأبيها حكيم بن حزام، وجدّها لأمّها خالد ابن حزام، وهما من بني أسد بن عبدالعزى؛ فهي أسدية أبًا وأمًّا، ولا نجد لها نسبًا لرسول الله ﷺ ولعليّ ؓ كما يشير الشاعر في البيت الثاني، إلاّ أن تكون إحدى أمهاتها علوية النسب.

(١٨) وقال للمهدي:

١- يا أمينَ الإله في الشرق والغرْ بِ علينا ويا ابنَ عم الرسولِ

٢- إن حكمي عليك تفديك نفسي   وكثيـــري وأســـرتي وقبيلي

٣- مجلسٌ في العَشِيّ عندك في الميدان والإذنُ منك لي في الدخول

٤- ليس شيءٌ من الأمورِ وإن كا   نَ عظيمًـــا عندي له بعديـــلِ

جمهرة نسب قريش ١٢٨، والبيتان الأول والثالث في **الأغاني** ٤/٣٦٠، وفي الأول (على الخلق) بدلاً من (علينا)، ورواية الثالث:

مجلسًا بالعشيّ عندك في الميـــــدان أبغي والإذن لي في الوصول

(١٩) وقال يردّ على عتّاب بن عبدالله الأموي، وقد فخر عليه بما يجمع العباسيين والأمويين من النسب المشترك:

١- اترك بني هاشمٍ وذكرهُــم   فإنهــم جدّعــوكَ فاصطلمــوا

٢- نحن نفيناك فاغتربت إلى الشـــــام مهانًــا لأنفــك الرغــم

معجم الشعراء، للمرزباني، تحقيق عبدالستار فراج، مصر، ١٩٦٠م، ١٠٨.

(٢٠)

١- قال عثمان زُرْ حَبابةَ بالعرْ   صـةِ تحدثْ تحيــةً وسلاما

٢- قلتُ زُرها وآتِ أمَّ عَديٍ   ترتــدي ليلةً إلينا الظلامـــا

٣- ثم نلهو إلى الصباح ولا نقــربُ   في اللهـــو والحديثِ حرامـــا

٤- وصفوهـــا فلم أزل علمَ اللـــــه إليها مستـــولهًا مستهامـــا

٥- هل عليها في نظرةٍ من جُناحٍ   من فـــتًى لا يزور إلاّ لمامـــا

٦- حال فيها الإسلامُ دون هواه   فهو يهوَى ويرقب الإسلامـــا

٧- ويميل الهـــوى به ثم يخشـــى   أن يطيعَ الهـــوى فيلقى أثامـــا

الأخبار الموفقيات، للزبير بن بكّار، تحقيق د. سامي العاني، بغداد، ١٩٧٢م، ٥١٨. قال الزبير بن بكار: "أنشدني عمّي لعبدالله بن مصعب"، ويعني بعمّه مصعب بن عبدالله.

وليس هذا الشعر قطعًا في حَبابة، مغنية يزيد بن عبدالملك، التي ماتت سنة ١٠٥ قبل ولادة شاعرنا بست سنوات (**العقد الفريد** ٤/٤٤٥)، وإنما هو في جارية تحمل الاسم نفسه، وربما كانت مغنية أيضًا.

وعثمان في البيت الأول هو عثمان بن خالد بن الزبير، ابن عم شاعرنا، قُتل مع النفس الزكية، ورثاه عبدالله مع من رثى من أهله في القصيدة ٢٢.

(٢١) وقال يرثي محمدًا النفس الزكية وأخاه إبراهيم:

١- يا صاحبي دعَا الملامة واعلما   أن لستُ في هذا بألومَ منكما
٢- وَقِفا بقبر ابن النبي وسلّما   لا بـــأس أن تقفا به فتسلمـــا
٣- قبرٌ تضمّنَ خيرَ أهل زمانه   حسبًا وطيبَ سجيةٍ وتكرمـــا
٤- رجلٌ نفى بالعدل جورَ بلادنا   وعفا عظيمات الأمور وأنعما
٥- لم يجتنب قصد السبيل ولم يَحِدْ   عنه ولم يفتــح بفاحشةٍ فمـــا
٦- لو أعظمَ الحدثان شيئًا قبله   بعد النبي به لكنتَ المعظمـــا
٧- أو كان أمتعَ بالسلامة قبله   أحدًا لكان قصاره أن يسلمـــا
٨- ضحوا بإبراهيم خيرَ ضحيةٍ   فتصرمـــت أيامُه وتصرمـــا
٩- بطل يخوضُ بنفسِه غمراتها   لا طائشًا رَعِشًا ولا مستسلما

١٠- حتى مضت فيه السيوف وربّما   كانت حتوفهم السيوف وربما
١١- أضحى بنو حسنٍ أُبيحَ حريمُهم   فينـــا وأصبح نهْبُهـــم متقسما
١٢- ونساؤهم في دورهن نوائحٌ   سجعَ الحمام إذا الحمامُ ترنما
١٣- يتوسلون بقتلهم ويَرَوْنَه   شرفًا لهم عند الإمــام ومغنما
١٤- واللهِ لو شهـــدَ النبيُ محمدٌ   صلى الإله على النبي وسلّمـــا
١٥- إشراعَ أمّته الأسنّة لابنه   حتى تقطرَ من ظُباهم دِما
١٦- حقًا لأيقنَ أنهم قد ضيعوا   تلك القرابة واستحلـــوا المحرما

تاريخ الطبري، مصر، دار المعارف، ٧/٦٠٢، **ومقاتل الطالبيين** لأبي الفرج ٢٢٤-٢٢٥ عدا الأبيات (٤، ٦، ٧، ٨).

(٢٢) وقال يرثيهما أيضًا ويرثي معهما مَن قُتل من آل الزبير:

١- تبكي مُدّ له أن تقنص حبلهم   عيسى وأقصـــد صائبًا عثمانا
٢- هلاّ على المهدي وابنَيْ مُصعبٍ   أذريتَ دمعـــك ساكبًا تهتانا
٣- ولفقد إبراهيم حين تصدعت   عنه الجمـــوع فواجهَ الأقرانا
٤- سالت دموعك ضَلّةً قد هجت لي   بُرحَاءَ وجـــدٍ يبعث الأحزانا
٥- واللهِ ما ولدَ الحواضنُ مثلَه   أمضى وأرفعَ مَحْتِـــدًا ومكانا
٦- وأشدّ ناهضـــةً وأقول للّتي   تنفي مصارع أهلهـــا العدوانا
٧- فهناك لو فقّأتَ غير مشـــوهٍ   عينيك من جزعٍ عُذرتَ علانا
٨- رزءٌ لعمرك لو يُصـــاب بمثله   مبطانُ صـــدّعَ رزؤه مبطانـــا

تاريخ الطبري ٧/٦٠١، **ومقاتل الطالبيين** ٢٢٤ (عدا الأول والسابع) وقدم البيت الرابع فجعله أول الشعِر. ومبطان: اسم جبل. وعيسى: هو

عيسى بن زيد بن علي. وعثمان: هو عثمان بن خالد بن الزبير. والمهدي: لقب النفس الزكية. وابنا مصعب: مصعب وإبراهيم.

(٢٣) وقال يمدح النفس الزكية، ويؤيد ثورته على المنصور:

١ - إن الحمامةَ يوم الشِعب من دَشَنِ ... هاجت فواد محبٍ دائمِ الحزنِ

٢ - إنّا لنأمـــل أن ترتـــدَ إلفَتُنا ... بعد التدابر والبغضاءِ والإحنِ

٣ - حتى يُثابَ على الإحسان مُحسنُنا ... ويأمنَ الخائفُ المأخوذُ بالدِّمنِ

٤ - وتنقضي دولةٌ أحكامُ قادتِها ... فينا كأحكامِ قومٍ عابدي وثنِ

٥ - فطالما قد بَرَوا بالجَورِ أعظمَنَا ... بَريَ الصناع قداحَ النبع بالسفنِ

٦ - قوموا ببيعتكم ننهض بطاعتنا ... إن الخلافةَ فيكم يا بني الحسن

٧ - لا عَزَّ ركنا نزارٍ عند سطوتها ... إن أسلمتك ولا ركنا ذوي يَمَنِ

٨ - ألستَ أكرمَهم عودًا إذا انتسبوا ... يومًا وأطهـــرهم ثوبًا من الدرنِ

٩ - وأعظمَ الناسِ عند الناسِ منـــزلةً ... وأبعدَ الناسِ من عيبٍ ومن وهَنِ

مقاتل الطالبيين ٣٤٦، وذكر أبوالفرج أن يحيى بن عبدالله العلوي ذكر للرشيد أن عبدالله بن مصعب قال هذه القصيدة في أخيه النفس الزكية، (وأقسم عبدالله أن الشِعر ليس له وإنما هو لسديف).

ودشن: اسم مكان.

* أستاذ بجامعة بغداد، بغداد، العراق.

جمهرة نسب قريش وأخبارها

نظرات... وتتمة

بقلم: أ. عباس هاني الجراخ

يقف كتاب جمهرة نسب قريش وأخبارها في مقدمة المؤلفات التي عُنيت بالأنساب؛ فهو أدقّها مادة وأغزرها شعرًا وأوسعها أخبارًا[1]، وهو جهد كبير سطّره العلاّمة الزبير بن بكار (ت٢٥٦هـ).

وقد عرف القرّاءُ هذا الكتاب يوم حقق المرحوم الشيخ محمود شاكر الجزء الأول منه، في القاهرة، عن دار العروبة، ١٣٨١هـ، وكان الفضل في ذلك للشيخ الجليل حمد الجاسر الذي وضع مخطوطة الكتاب بين يدي الشيخ محمود. ومنذ ذلك الوقت كانت الحاجة ضرورية لنشر القسم المتبقي منه، ولكن السنوات تمرّ، ولم يحدث الأمر، لأن الرجُل مشغول بتحقيق كتُبٍ أخرى في تراثنا العربي، فضلاً عما مرّ به في حياته من أحداث.

وهنا كان لا بدّ من مبادرة لنشر ذلك القسم، خاصة بعد وفاة الشيخ محمود، فقام الشيخ الجاسر بالاتصال بعائلة الشيخ محمود وحصل على ما خطّه بيده، ونشرَه كما هو، مع الجزء الأول، ليكون الكتاب كاملاً بين يدي القارئ، وشرّفني بصنع فهارس تفصيلية له، أتممتُها في ١ صفر ١٤٢هـ.

ويلاحظ -من أول وهلة- أنّ الشيخ محمودًا نسخ القسم المتبقي بيده[2]، دون أن يحققه؛ ومن تدقيق الهوامش القليلة فيه، ندرك أنه كان ينوي إتمام

تحقيقه، وربما لضخامته -والذي سيكون في جزءين، قياسًا إلى الأول، لو قُدّر له أن يُحقّق- وكثرة ما فيه من أعلامٍ وأشعارٍ، هو الذي جرى جعله ينتظر الفرصة للتفرغ لتحقيقه، وهذا ما لم يحدث.

لقد كان الدارسون يحبّذون تحقيق هذا القسم، ولكن بعد نشره هكذا، لا يملك المرء إلا القبول بالوضع الراهن، وكما قال الشيخ الجاسر "حتى يهيئ الله للكتاب مَن يخرجه إخراجًا كاملاً من جميع النواحي"[٣]، كالأستاذ إبراهيم بن سعد الحقيل.

ولما بدأتُ بصنع الفهارس التفصيلية للكتاب، حاولتُ -ما أمكنني الجهد- أن أنقّح التطبيعات (الأخطاء المطبعية) منه، وأسهم في التعريف ببعض ما ورد فيه، والتنبيه إلى اختلاف قراءة الشيخ محمود مع النص الأصلي، وقد ظهر قسم مما كتبتُه في هوامش الكتاب، واعتذر الشيخ الجاسر عن بعضها الآخر، بسبب أنّ نشرها سيغيّر أرقام الصفحات، لذا فقد اكتُفِي بما ظهر منها.

وقد وددتُ أن أقف قليلاً عند بعض القضايا لتكون تتمة لعملي في خدمة هذا الكتاب الجليل.

أولاً: قراءة المخطوطة

إن الجهد الذي بذله المرحوم الشيخ محمود في قراءة المخطوطة وما فيها من تصحيف وتحريف، بسبب أوهام الناسخ وعدم ظهور أسطر منها جراء التصوير، واضح وبيّن لكل من يمتلك صورة من تلك المخطوطة الوحيدة الباقية من الكتاب.

إلا أنني بعد أن أكرمني الشيخ الجاسر بصورة منها رأيتُ ألفاظًا قرأها الشيخ محمود بصورة مختلفة عما وردتْ في الأصل المخطوط، وفي أحيان قليلة كان يضع نقاطًا أو علامة استفهام دلالة على عدم تمكنه من قراءة الكلمة، أو شكه فيها؛ فهو قد أهمل أسماء الأعلام التي وردت في السماع، بعد نهاية كل جزء من أجزاء المخطوطة، إذ جاء بعضهم بهيئة مختلفة في كل مرة.

وكان الشيخ الجاسر قد كشف عن أحدهم، وهو (ابن الفُوطي)، كمال الدين عبدالرزاق بن أحمد بن محمد (ت٧٢٣هـ)، صاحب كتاب **تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب**.

وأحب أن أوضح ثلاثة أسماء:

الأول: ورد في الصحيفة ٥٦: "أبوالمعالي بن أبي الفتح بن..." وعلّق الشيخ محمود في الهامش: "كلمة غير واضحة".

أقول: مكان النقاط: "سهل الطيبي"، كما ورد في المخطوطة. والعجيب أن الاسم نفسه ورد في الصفحتين ٢٤١ و٣٤٠.

الثاني: ورد في الصفحات ١٥٦/٢٤١/٣٤٠/٤٦٨: مقابل بن أحمد ابن علي العنبري. وصواب الاسم: (مقاتل)، بالتاء، فهو: أبوشجاع مقاتل ابن أحمد الواسطي، قدم بغداد وتوفي بواسط سنة ٦١٦هـ (تنظر ترجمته في **المختصر المحتاج إليه** لابن الدَّبيثيّ ٢٤٠/١، **الوافي بالوفيات** ١١٩/٢، **طبقات النحاة واللغويين** (المحمدون) لابن قاضي شهبه، بغداد-٤٦، و لم أملك إلا أن أذكر الاسم الصحيح في فهرس الأعلام، ص ١٠٩٦.

الثالث: ورد في الصحيفة ١٥٦: عبدالكريم بن راري المترسي، والصواب: عبدالكريم بن غازي المرسي، كما ورد في المخطوطة هنا، وفي

صفحات أخرى، علاوة على أسماء وردتْ مشوّهة، استطعتُ تصحيحها في تجارب الطباعة (البروفات) فظهرتْ سالمة.

ويقيني أن الشيخ محمودًا لو كان له متّسع من الوقت، لأقبل على دراسة هؤلاء الأعلام، ولأتى بالصواب، فهو ابن بجدتها، وخرِّيتها الخبير، رحمه الله.

وإذا انتقلنا من أولئك الأعلام إلى كلمات أخرى في الكتاب، لرأينا ألفاظًا ظهرت على غير حقيقتها، وهي على النحو الآتي:

١- جاء في الصحيفة ٥٣٢: "فاريه اليوم أن يكون آية للعالمين" والصواب: "فأدّبه اليوم، ليكون..."، وهذا التصحيح من كتاب (اختيار الممتع في علم الشعر وعمله) لعبدالكريم النهشلي (ت٤٠٥هـ) تحقيق د. محمود شاكر القطان، ٢/٢٥٤، إذ نقله عن الزبير بن بكار صراحة. لذا كان من المناسب الرجوع إلى هذا الكتاب، أو مخطوطته.

وورد في الهامش: "فلم تزل تنعته حتى ادَخَلَتْ..." والصواب -كما ورد في المخطوطة-: "حتى ماتَ" مع الواجب أن يُنقل هذا الهامش برمّته إلى المتن، ويُوضع داخل عضادتين.

٢- ص٥٥٦، الفقرة الأخيرة: "الذي ذكر لي"، وفي المخطوطة: "الذي ذكره لي".

٣- كان قد ورد في ص١٧١ السطة ١٥: عبدالرحمن بن الأشعث، فصحّحتُه في تجارب الطباعة إلى عبدالرحمن بن الأزهر، وهو الصواب.

٤- ص٥٧٣، السطر ١٩: "فأخبرت الأنصار" وفي المخطوطة: "فأخبرته".

٥- ص٨٠٢، السطر ١٧: "بعد إذ كنت"، وفي المخطوطة: "بعد أن...".

٦- ص٥٨٢ "مرت بهم الشفاء وأم أم عبدالرحمن بن عوف" والصواب حذف "وأم" لأنها لم ترد في المخطوطة، كما أنها خطأ.

٧- ص٦٤٥، الخبر ١٥٤٥، من بداية السطر حتى نهاية تاليه، يجب أن يحصرا داخل قوسين، ويُشار إلى أنهما في حاشية الأصل، وكذلك ص٩٨٤، نهاية الخبر ٣٣٣٥ من عبارة (بن مالك بن النضر) حتى نهاية السطر الخامس، كلمة (كنانة) وكنت قد أشرت إلى ذلك، ولكن ما ظهر لم يكن واضحًا.

٨- ص٨٤٥: "وأمه خولة بنت القعقاع". وكنتُ قد صححتها إلى "ابنة" كما ورد في المخطوطة، وهو الصواب.

٩- ص٩٩١: "كان ذا سرو ومروءة". وكنتُ قد صححتها بناء على ما ورد في المخطوطة إلى: "شرف"، ولكن ظهر في الهامش ما يوحي أنني قرأتها خطأ!!

١٠- ص١٠٠١: "أبوالقاسم حيدر"، والصواب: أبوالقاسم بن حيدر، وفي الصحيفة نفسها: "خامس عشر من محرم"، والصواب حذف (من)، ثم "وعلى إله الأكرمين". أقول: يُضاف إليها: "..وسلم" كما ورد في المخطوطة.

هذا ما رأيتُ التنبيه عليه من اختلاف قراءة الشيخ محمود مع المخطوطة الأصلية، وهناك ألفاظ أخر عزوتُها إلى (التطبيعات)، على ما صححتُها في المرة الأولى، وما سأذكره منها بعد قليل.

أضيف إلى ذلك أنه -رحمه الله- كان يُخرّج الآيات القرآنية في المتن، وكان الأَوْلَى أن يكون التخريج في الهامش، لأن المتن حق المؤلف، وهو لم يفعل ذلك. والغريب أن الشيخ محمودًا وقد خرّج بعضها، فإنه ترك بعضها الآخر، وقد تكفّلتُ بذلك عند صُنعي فهرس الآيات القرآنية.

ثانيًا: العروض

اهتم الشيخ محمود بضبط النص وشرحه، لكنه لم يضع البحر الشعري أمام كل قطعة؛ يضاف إلى أن رسم بعض الأبيات رسمًا غير عروضي، أي

كما وردت في المخطوطة. ففي الصحيفتين ٦٥١-٦٥٢، جاءت (٧) أبيات وشطر -كما هو ظاهر- لأُمية بن أبي الصّلْت، وأوّلها:

علم بن جدعان بن عمرو انه يومًا مدابر ومسافر سفرًا بعيدًا لا يرى منه المسافر

وحقيقة الأمر أن ما ورد مخالف للعروض؛ فالقصيدة من مجزوء الكامل المرفَّل، وصواب الأول، وهما بيتان:

علم بن جدعان بن عَمْـــ ـــرو انه يومًا مدابرْ

ومســـافر سَفـــرًا بعيـــ ـــدًا لا يرى منه المسافرْ

وقد نبّهتُ إلى الأمر، ولكن لم يمكن التصحيح، لأن الكتاب طبع وصُفَّ، فلم أملك إلاّ أن ذكرتُ في فهرس الأشعار أن عدد أبيات القصيدة: (١١) بيتًا. ينظر: ص١١٢٣.

فضلاً عن أبيات كثيرة لم ترِد مدوّرة -على الشطرين- في الصفحات ١٠٨، ٦٥٢، ٦٩٧، ٧٣١-٧٣٢، ٧٤١، ...، ...

وجاء في الصحيفة ٦٣٥:

هل مثل طلحة فيكم فيمـــن ومن يبين

والصواب في رسم البيت وكتابته:

هَلْ مثـــل طلحة فيكم فيمَنْ يقيمُ ومَنْ يبين

وهو من مجزوء الكامل. وأُرجّح أنّ سقوط كلمة (يقيم) الواردة في للمخطوطة خطأ مطبعيّ، لا غير.

ثالثًا: الفهارس.. لحق وتتمة.

نُشرتْ بعض النظرات والإضافات التي علّقتُ عليها في هوامش الكتاب، ولم يمكنني أن أُثبتها في (الفهارس)، لأنني لم أكن أعرف هل ستُنشر كلها، وهل ستُختصر؛ لذا أُثبتُ هنا أرقام صفحات لأعلام وكتب

لم تُنشر سابقًا، ثم أُتبعها بأرقام جديدة لمواد ظهرتْ في الفهرس، لتكون تتمة ولحقًا بتلك الفهارس.

أ- تُثبّت المواد الآتية في أماكنها:

فهرس الآيات القرآنية:

﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ الأنفال ٦ (ص٦٠٥).

فهرس الأعلام:

- د. إحسان عباس: ٨٨.
- د. بهجة عبدالغفور الحديثي: ٩٢٨.
- عبدالله بن شييم: ٩٨١.
- د. عبدالمجيد الأسداوي: ١٨١.
- د. فيصل السامر: ٣٤.
- نبيلة عبدالمنعم داود: ٣٤.
- د. نوري حمودي القيسي: ٧٨/٤٨٠.

فهرس الكتب:

- **الأشربة**، لابن قتيبة: ٥٤٨.
- **الأماكن**، للحازمي: ٩٢٨.
- **أُميّة بن أبي الصَّلت، حياته وشِعره**: ٩٢٨.
- **البُرصان والعرجان**، للجاحظ: ٨٩٧.
- **ديوان القتّال الكلابي**: ٨٨.
- **شعراء أمويون**: ٤٨٠.
- **شِعر إسماعيل بن يسّار**: ٣٠٨.

- **فصول التماثيل في تباشير السرور**، لابن المعتز: ٥٤٨.

- **مُرّة بن مَحْكان السَّعدي، حياته وما تبقّى من شِعره**: ٧١١.

ب- تضاف أرقام الصفحات إلى الأسماء الآتية:

فهرس الأعلام:

- إبراهيم بن سعد الحقيل: ٦٦/٦٧/٧١٥.
- عباس هاني الجراخ: ٦٦/٣٤/٣٦/٣٠٨/٥٦١/٩٩١.
- أبوالمعالي بن أبي الفتح الطيبي: ١٥٦.

فهرس الكتب:

- **طبقات فحول الشعراء**: ٨٩٧.
- **عيون الأخبار**: ٧٩٨.
- **مجلة المجمع العلمي العراقي**: ٧٨.
- **مجلة العرب**: ١٨١/٧١١.
- **المحبّر**: ٨٩٧.
- **معجم البلدان**: ٩٢٨.

رابعًا: **التطبيعات** (الأخطاء المطبعية):

كنتُ قد صححتُ نحو خمس مئة خطأ مطبعي، وبعد صدور الكتاب عثرتُ على أخطاء مطبعية أخرى، بعضها مما لم أقف عليه أول الأمر، لأنه حدث في الفهارس التي لم أستطع مراجعتها، وبعضها الآخر لم يُصححه القائمون على طبع الكتاب، برغم إشارتي إليه، وهي على النحو الآتي:

الصحيفة	السطر	الخطأ	الصواب
١٠	١٧	لشَعراء	لشُعراء
٤٨٨/١٢	١٢/٢٠	بن	ابن (توضع الهمزة في أول السطر)
٣٤	هامش٢(١٥)	ابن الغراء	ابن الفراء
٣٠	٧	يُشطب من كلمة (بختيار) إلى (بختيار) الثانية لأنها زائدة مكررة.	
٤١	هامش١(١)	بابن غالب	بابن أبي غالب
٦٥	هامش(١)	فريناند	فرديناند
٧١	هامش٢(٣)	سُمِيًّ	سُمّيَ
٧٣	١١	تُعَقر	تُعْقر
١٤٦	٢	يحمْد	يُحْمَد
١٩٥	١٥	ذكرتّ	ذكرتْ
١٧٢	هامش١	النوادر والتعليقات	التعليقات والنوادر
٢٠٧	هامش١	يغَذِرُون	يَغْدِرُونَ
٢٠٨	هامش ٤	حذف من "نسب قريش"	"حذف من نسب قريش"
٢٠٩	هامش ١	ثلاث عشر سنة	ثلاث عشرة سنة
٢١٣	١	المعقد	المقعد
٢٢٨	٧	فيرفُع	فيُرْفَع
٢٢٩	٦	صادقًا	صادقا
٦٥٧/٢٣٥/٨٦٢	٣/١/٧	ربيعة ابن المغيرة	... بن ...
٢٨٧	هامش٣	أسماء جبل	أسماء جبال
٣٠٥/٣٠٤	هامش٢/٧	سيرة أعلام النبلاء	سير...
٢٣٦	٧	المقُتربة	المقْتربة
٣٣٧	هامش٦	(بالرى)	(بالريّ)
٣٤١	هامش١	وآل	وآله

٣٤٤	هامش٤	الثلائي	الثلاثي
٣٥٤	١١	ليحيىَ	ليحيَى
٣٦٤	هامش٢	البحتري	البختريّ
٣٦٨	٥	للنبيْ	للنبيّ
٤٠٧	١	أعَوج	أعْوَج
٣٩٩	٧	كلاميَ	كلامِيْ
٤٣٥	هامش١-٤	يد مع مع	تحذف (مع) الثانية
٣٨٢	٢	سيلمان	سليمان
٥١٢	٩	طلحْة	طلْحَة
٥٤٤	٢	علمتوهنّ	علمتموهنّ
٥٣٤	٦	بسَهَم	بسَهْم
٥٤٢	١١	نجهتْ	نجهتُ
٥٥٨	١١	غدّْنَ	عدَّدْنَ
/٥٨١	/٩	ليلي	ليلى
٥٨٩	١٧	حيئنذ	حينئذ
٥٩١	١٩	أمهات	أمُّهما
٥٩٢	١١	قلوبُهم	قلوبِهم
٥٩٣	٨	الجمحَى	الْجُمَحِيّ
[وتتغير هوامش الصحيفة إلى (٢) و(٣)، ويكتب في (٢): تنظر: ٢٦٨٢، ويتحول الرقم في (١) إلى ٢٦٧٩]			
٦٠٠	١٦	رسول	لرسول
٦٠٣	١	أعطهمْ	أعْطِهِمْ
٦٢٤	٦	لَنعُمَ	لَنِعْمَ
٦٥٨	الأخير	يُحَمل	يُحْمَل
٦٦٠	١٦	ينحيْنةُ	ينحينهُ

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٦٦٣	١٦	الأذم	الأدَم
٦٦٤	٥	الأفران	الأقران
٦٦٥	١٢	يؤنّبه	يؤبّنه
٦٧٦	ما قبل الأخير	فال	قال
٧٠٨	هامش/٥	جنون	حبّون
٧٢٤	٨	السنور	السنوّرا
٧٣٥	٢	أعيوهم	عيوهم
٦٩٢	١١	عكِرّمة	عكرمة
٧٤٢	١١	لفتياهما	لفتاهما
٧٥٠	٤ (أسفل)	عايذ	عائذ
٧٥٧	٦	جئتهُم	جِئْتُهُمْ
٧٥٨	٥	فترُفع	فَتُرْفع
	١٠	يُشيِّعه	يُشَيِّعه
٧٧٢	١٦	صرعتُه	صرعتَه
٧٧٨	ما قبل الأخير	يذكرُني	يذكرْني
	الأخير	تعرّفن	تعرِفن
٨٠٣	٥	طاوسان	طاووسان
٨٠٦	١٠	ويْحك	وَيحك
٨٠٧	٤	ولَي	ولِي
	١١	دهرْ	دهرٌ
	١٥	قُريُش	قُرَيْش
٨١٩	٣ (أسفل)	الجمحيْ	الجمحيّ
	الهامش	سقط	سقطًا
٨٣٣	١	يرحُمك	يرحَمك
٨٤٢	٩	فهلْمه	فهلُمه

٨٤٨	١	فعضب	فغضب
٨٦٢	٧	الأسُود	الأسْوَد
٨٧٠	٣	أبِي	أبِي
	١٤	الذيْال	الذيَّال
٨٧٥	١٣	حاجتُّك	حاجتُك
٨٨٤	١٥/١٤	طارقًا/سارقًا	طارقا/سارقا
٨٨٦	٩/٣	ثيّبًا/عْسرا	ثيِّبًا عسْرا
٨٩٢	١	خلّة	حُلّة
٨٩٧	٨	أصغر	أصفر
٩٠٤	٣	سْهم	سهْم
٩٠٥	١٦	حذيمَ	حذَيم
٩٠٦	٥	سُمِيّ	سُمّيَ
٩٠٧	٥	مُعتِلج	مُعْتَلج
٩٢٣	٦	نَصَطحب	نصْطحب
	١٥	فقال عمرو	فقال عُمَر
٩٣٢	٩	قانف	قائف
	١٣	قرطة	قرظة
٩٤٣	١	تلقى	نلقى
٩٥٧	الهامش	تم سماع	ثمَّ سماع
٩٥٨	الهامش/٩	صلي	صلَّى
٩٥٩	الهامش/٤	الغراء؟	الفرَّاء
٩٦٩	١٢	عويرًا	عويمرًا
٩٧٤	٣	خزيمة	خُزيمة
٩٧٥	٩	رواية	راوية
٩٨٥	١٢	بن فهر/المطيين	تحذف المكررة/المطيبين

	١٧	الفوادي	الغوادي
٩٨٦	٢	عُتوراة	عتوارة
	الأخير	فنخساها	فنخسا بها
٩٨٨	٣ (أسفل)	عامر	عامرة
٩٩٣	١٢	العُزي	العزَّى
٩٩٤	١٣	استعلمه	استعمله
	١٨	فراسي	فارسي
	١٩	عم	عمل
٩٩٥	٥	فأبي	فأبى
	٨	لا حقكُمْ	لاحِقكمْ
٩٩٦	٤	نَرحل	نَرْحَل
	١٦	بنت بن زهرة	بنت زهرة
٩٩٧	١٢	غزا بن	غزا بني
	٨	مفرقة	مفرقةُ
٩٩٩	١٥	ضعبا	ضبعًا
١٠٠٥	١٨	ليست عملية	ليس عملية
١٠٠٨	١	سقط رقم الصحيفة وهي	(٢٦٣)
١٠١٤	١٠	آمنة... ٨٩٦	٩٨٦
١٠١٤	النقطة ٧	وينظر	لا ينظر
١٠١٦	١٢/العمود الثاني	أبي طاهر	أبوطاهر
١٠٢١	١٦/العمود الأول	أمية.. ٩٢٧	٩٢٨
١٠٢٢	١١/العمود الثاني	الناقي	الباقي
١٠٣٧	/العمود الثاني	الدارمي = الدارمي	= سعيد الدارمي
١٠٣٨	٩/العمود الثاني	ابن داوس	ابن دوَّاس
١٠٤٧	١٣/العمود الثاني	سكين	سكينة

١٠٧٣	١٦/العمود الأول	علي... حنضَة	حَضَنَة
١٠٨٨	٦/العمود الأول	محمد بن بشير... ٥٠٧	٥٥٧
١٠٩٢	٤/العمود الثاني	الأسدي	السعديّ
١٠٩٥	٧/العمود الأول	أبوالمعالي بين	أبوالمعالي... ١٥٦
١١٠٠	١٠/العمود الأول	يحذف، لأنه مكرر	
١١١٥	اسم الشاعر	عبدالله	عبيدالله
١١١٨	١٥	عبدالله بن عبدالله	عبدالله
١١٢٠	٢٣	أرطأة	أرطاة
١١٢٣	١٩(القافية)	المسافرْ	مدابرْ
١١٢٤	١٢	أبوميمون	أبو ميمون
١١٢٦	١٩(صدرليت)	بشرَ	بشرْ
	٢١(اسم الشاعر)	هَبار	هبّار
١١٣	٥	الظائي	الطائي
١١٣٧	١٦	٦٥٣	٦٣٥
١١٥٤	٢	(الألف)	(الهمزة)
	الهامش	طبقات الكبرى	الطبقات الكبرى
١١٥٨	٥	سيرة أعلام النبلاء	سِيَر
١١٦١	٢/العمود الثاني	نوادر والمخطوطات	نوادر المخطوطات

- سقط في (فهرس الكتب): جمهرة أنساب العرب، لابن حزم: ٨/٧٥/٨٠/٨١/٨٥/٩٠/ ٩٥/١٦٣/١٦٥/٢٧٢/٢٨٠/٢٨١/٢٨٥/٢٨٦/٢٩٠/٢٩١/٣٠٤/٣١٣/٣١٥/ ٣١٩/٣٣٧/٣٥٢/٣٥٥/٣٦٠/٣٦٣/٣٦٤/٣٦٥/٣٦٦/٣٦٧/٣٩١/٣٩٤/٤٠٨/ ٤١٠/٤١١/٤١٢/٤٢٧/٤٤٠/٤٤٤/٤٤٥/٤٤٧/٤٥٠/٤٦٥/٤٦٧/٤٧٠/٤٧١/ ٤٩٣/٥٠٣.

(يتبع في ص٤٨٣)

أممية البيروني وآثار الأمم

بقلم: أ. يوسف الهادي*

صدرت أول طبعة لكتاب الآثار الباقية عن القرون الخالية لأبي الريحان البيروني (٣٦٢-٤٤٠هـ) في لايبزك سنة ١٨٧٩م، وأعيد طبعها

(بقية ص٤٨٢)

وبعد، فقد اجتمع لي مع كتاب **جمهرة نسب قريش وأخبارها** جميل صحبة، وأفدتُ منه فوائد جمّة، بعد أن سبرتُ أغواره ودقائقه، وأحطتُ بمعالمه وصواه، فوضعتُ تلك الفهارس والنظرات. وما أثبتّه هنا أرجو أن يُلحق بها. والحمد لله رب العالمين، وصلواته على رسوله الأمين.

الهوامش:

(١) ينظر: **جمهرة نسب قريش وأخبارها** ٨/١، **مجلة العرب**، س٣٥، ص٢٥٣-٢٥٥؛ مقال الأستاذ د. عبدالعزيز بن سليمان المقبل: النسب عند العرب والتصنيف فيه.

(٢) كان الشيخ محمود -رحمه الله- قد نسخ مخطوطة كتاب **من اسمه عمرو من الشعراء**، لابن الجراح (ت٢٩٦هـ)، ولم ينشر ما نسخه، وأعطاه إلى الأستاذ د. عبدالعزيز المانع، الذي حقق الكتاب، وجلاه خير جلوة، وصدر بالقاهرة، عن مكتبة الخانجي، مطبعة المدني، ط١، ١٤١٢هـ/١٩٩١م. وهذا مثال على نسْخ الكتاب وعدم إكمال تحقيقه.

(٣) **جمهرة نسب قريش وأخبارها** ٦/١.

(٤) حقق الجزء الرابع منه د. مصطفى جواد، بدمشق، المطبعة الهاشمية، ١٩٦٢-١٩٦٧م، ونشر الجزء الخامس الشيخ عبدالرحمن بن يحيى القاسمي، في مجلة **أورينتل كولج مكَزِن**.

في ١٩٢٣م. وكلا الطبعتين بتحقيق المستشرق الألماني الموهوب إدوارد زاخاو (١٨٤٥-١٩٣٠م). وقد اعتمد مخطوطة تبين لاحقًا سقوط بعض الصفحات والأسطر منها؛ وذلك عقب الكشف سنة ١٩٣٣م في تركيا عن مخطوطة للكتاب استنسخت سنة ٦٠٣هـ (المعروف أن البيروني ألّف كتابه هذا سنة ٣٩١هـ). وقد قام اثنان من المستشرقين هما غاربرس ويوهان فوك باستخراج تلك الصفحات والأسطر وطبعها تحت عنوان **ساقطات الآثار الباقية**، فكوّن ذلك كتيبًا أعيد طبعه في طهران بالأوفست.

تأتي الطبعة الجديدة لهذا الكتاب التي حققها الباحث الإيراني الدكتور برويز أذكائي إنجازًا طيبًا لهذا الكتاب من خلال جهد مضنٍ بذله في تحقيقه هذه الطبعة؛ فقد اعتمد أولاً ثلاث مخطوطات للكتاب:

١- مخطوطة المكتبة العامة في إستانبول (كتبت سنة ٦٠٣هـ).

٢- مخطوطة جامعة أدنبره (كتبت سنة ٧٠٧هـ).

٣- مخطوطة مكتبة طوب قابو سراي بتركيا (كتبت أو ملكت سنة ٨١٣هـ).

كما قام ثانيًا بترجمة تعليقات زاخاو التي وضعها للترجمة الإنجليزية للكتاب التي أنجزها زاخاو نفسه مستعينًا باثنين من كبار المستشرقين (فلايشر وستنفلد) وهي تعليقاته على غاية من الأهمية بما حفلت به من شرحه لمصلطحات في علوم الفلك والتاريخ والكتب المقدسة القديمة وتراجم للشخصيات العلمية أو الزعامات لشتى الأديان والمذاهب المذكورة في الكتاب. ولم ينس الأستاذ أذكائي أن يضيف مجموعة ضخمة من الهوامش للكتاب مميزًا بالاسم بين تعليقاته وتعليقات زاخاو. كما أضاف حسنة أخرى لهذه الطبعة وهي نقله أسماء الملوك والشخصيات والأعياد والمهرجانات والمصطلحات العلمية والفلكية

في الطبعة الإنجليزية إلى طبعته ووضعها في متن الكتاب مما لا يخلو من فائدة لمن أراد مراجعة تلك الأسماء في مصادرها.

ولما كانت اللغة العربية معروفة لدى المشتغلين والباحثين في التراث من الإيرانيين، فقد أبقى محقق الكتاب المتن العربي بعد أن قدّم له بالفارسية فضلاً عن تعليقاته التي كانت بالفارسية أيضًا، وكذلك تعليقات إدوارد زاخاو. وعلى هذا فإن ما يغنمه عشاق التراث العربي من هذه الطبعة هو متنها الذي اعتمد ثلاث مخطوطات، كما أسلفنا، والذي نبّه في هوامش كل صفحة منها إلى الاختلاف الواقع بين هذه المخطوطات، وكان دقيقًا لولا بعض الأغلاط الطباعية والهنات في قراءة بعض الكلمات.

وبسبب عقليته الموسوعية التي عرف بها في جميع مؤلفاته، فقد حشد البيروني في كتابه هذا **الآثار الباقية** كمية هائلة من المعلومات في شتى العلوم، ومنها حساب التواريخ لدى الأمم كالروم والعرب والفُرْس، وذلك بحسابات رياضية دقيقة وجداول منظمة، ثم ذكرِ قوائم مطوّلة بملوك شتى الأمم، انتقل بعدها إلى أعياد الأمم، وهو أمتع فصول الكتاب، ثم خصص جداول مفصّلة للوقائع التاريخية لدى كل أمّة. وقد وضع إلى جانب كل واقعة تاريخها. ولم ينس أحزان الأمم أيضًا؛ حيث كان يدرجها ضمن المناسبات التي كان يجمع فيها بين الأفراح والأتراح على مدار أشهر السنة فيكتب اسم كل شهر منذ بدء كل سنة لدى أمّة من الأمم، ويذكر ما فيه من مناسبات للفرح أو الحزن أو الصوم أو الصلاة الخاصة، وهو يذكر حتى المناسبات المستجدة على زمانه؛ فضمْن شهر تموز وما في أيامه من مناسبات للنصارى يشير إلى تكريم ذكرى

يوحنا المروزي حيث يقول: "وفي الرابع عشر منه، ذكر أن يوحنا المروزي الحديث المعذّب المقتول في زماننا" (ص٣٧٢)، أي أواخر القرن الرابع الهجري.

ألّف البيروني هذا الكتاب عندما كان في التاسعة والعشرين من عمره، ومع ذلك فطبيعة الكتاب الموسوعية والأفكار التي طرحها فيه وخاصة ما يتعلق بالرياضيات والفلك تكشف عن نبوغ مبكّر لديه. كما يكشف الكتاب عن مدى سعة ثقافته، فاستشهاداته التي اقتبسها من حشد كبير من المصادر سواء أكانت كتبًا مقدسة أم تاريخية أم علمية دالّة على تتبّعه -وهو في تلك السن المبكرة- لتلك المصادر التي لا يوجد أثر لأغلبها في عصرنا الراهن، ومنها في التاريخ: **التاجي** لإبراهيم بن هلال الصابي، **وتاريخ ثابت ابن سنان**، **وسِير الملوك** لابن المقفع، **ومعارف الروم** للأهوازي، **وتاريخ السلامي**، وهو ينقل أيضًا من **تاريخ حمزة الأصفهاني** تواريخ كبار الأمم من مضى منهم ومن غبر، وهو موجود الآن ومطبوع تحت عنوان **تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء**، وفي الجغرافيا: **المسالك والممالك** للجيهاني، -وهو مفقود-، **والمسالك والممالك** لابن خرداذبه، وهو مطبوع الآن، وفي الفلك نقل من تفسير كتاب **المجسطي** لأبي العباس النيريزي، **والمدخل الكبير إلى علم النجوم** لأبي جعفر الخازن، وزيج يوسف بن الفضل اليهودي الخيبري، وزيج أبي معشر الفلكي. ومن الكتب المقدّسة **التوراة والإنجيل**، ومن الكتب اليهودية **سيدر عولام**، ويعني سنيّ العالم. ومن كتب المجوس **الأفستا**. ومن كتب المانوية **الشابورقان وسفر الجبابرة**. فضلاً عن مؤلفاته التي فُقِد الكثير منها؛ و كذلك محاوراته مع معاصريه من العلماء وأصحاب المذاهب.

كانت لفتة علمية من دار نشر التراث المخطوط في طهران أن تبادر لطبع كتاب بهذا التعقيد بما اشتمل عليه من جداول في الرياضيات والفلك ورسوم هندسية ومعادلات، مع قلة النفع التجاري في أمثال هذا المطبوعات التي لا تقبل عليها إلا طبقة خاصة من القراء. وكان بودنا أن تكون في وطننا العربي دار تعنى بآثار هذا العالم الخوارزمي ذي البعد الأممي الذي كتب جميع مؤلفاته بالعربية والذي قال عنه مؤرخ العلم الأميركي آرثر بوب:

"في أية قائمة لأكابر علماء الدنيا يجب أن يكون للبيروني مكانه الرفيع. ومن غير الممكن أن يكتمل بدونه أي تاريخ للرياضيات أو الفلك أو الجغرافيا أو علم الإنسان أو مقارنة الديانات. لقد كان من أبرز العقول المفكرة في جميع العصور، وكان يمتاز بالصفات الجوهرية التي تخلق العالم. فالبيروني مظهر للشمول وعدم التقيد بالزمن، شأنه شأن العقول العظيمة. ويمكن تجميع ما كتبه منذ ألف سنة وهو يسبق كثيرًا من المناهج ومن المواقف العقلية التي يفترض أنها حديثة" (عن كتاب **أبوالريحان البيروني** للدكتور عبدالحليم منتصر، القاهرة، ١٩٦٨م، ص٢٢٩). يقع الكتاب في طبعته هذه فيما يزيد على ٩٠٠ صفحة كان منها ٤٥٨ لمتن الكتاب، بينما خصص الباقي للمقدمة والفهارس التي جاءت وافية.

ومع ذلك، فلنا بعض الملاحظات على هذه الطبعة ومنها:

١- تعليقًا على ما ورد في (ص٤٢٣): "وذكر السلامي في كتاب **التاريخ**"، نقل محقق الكتاب تعليقة زاخاو التي قال فيها إنه يوجد اثنان بهذا اللقب: شاعر عاش في القرن الرابع الهجري، والآخر كاتب هو مؤلف **نتف الطرف**. قال أذكائي: إن مراد زاخاو من مؤلف **النتف والطرف** هو مؤلف

تاريخ ولاة خراسان أبو علي الحسين بن أحمد السلاّمي المتوفى حوالي ٣٣٩هـ، وهو مؤلف **تاريخ ولاة خراسان**، وقد عرف هذا المؤرخ بمؤرخ خراسان. ثم أضاف المحقق: ويبدو أن الذي قصده البيروني هو أبو الحسن عبدالله بن موسى بن الحسين السِّلامي (ت٣٧٤هـ) المنسوب لمدينة السلام، الشاعر والباحث في الحديث والتاريخ والأدب... إلى آخر كلامه.

قلتُ: المقصود بالسلاّمي -بتشديد اللام- هو أبو علي الحسين بن أحمد بن محمد الذي كان حيًا في ٣٤٤هـ والذي ترجم له البيهقي علي ابن زيد وقال إنه "صاحب التاريخ"[١].

ومن سهو القلم قول حاجي خليفة[٢] إن الكتاب لأبي الحسن السلامي المتوفى سنة ٣٩٣هـ. وكذلك قول أغا بزرك الطهراني إنه لأبي الحسن محمد ابن عبدالله السلامي الشاعر[٣].

٢- تردد في لقب ابن أبي العزاقر فقد كتبه الشلمقاني وكذلك في فهرست الكتاب (ص٢٦١، ٧٩٥)، لكنه كتبه بشكله الصحيح في الفهرس (ص٧٧٤): الشلمغاني.

٣- وافق أحيانًا الأخطاء التي وقعت في طبعة زاخاو أو ساقطات الآثار الباقية، ومن ذلك: ص٧٦ قوله تعالى ﴿ مَا كُنْتُ مُتَّخِذًا لِمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾، وقد طبعت الآية بهذا الشكل أيضًا لدى زاخاو، وصوابها معروف: مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ.

ص٢٦٢ حول اللحظات الأخيرة من حياة الحلاّج: "ثم إنه أبْدَأ يباهل". وقد طبعت كذلك في ساقطات الآثار. قلتُ: الصواب بَدَأَ يباهل.

ص٢٦٥ علي بن الموسى الرضى، وهي كذلك في ساقطات الآثار، وصوابها معروف: علي بن موسى الرضا.

ص١٧٠ بويع لعبدالله بن المعتز ولقب المنتصف (؟) بالله. وقد طبعت علامة الاستفهام في ساقطات الآثار أيضًا، وذلك يعني عدم جزم محققي كلا الطبعتين بصواب هذه الكلمة. قلتُ: اللقب صحيح. قال عريب القرطبي ضمن حوادث ٢٩٦هـ: "خلع المقتدر القواد والكتاب وقضاة بغداد، وبايعوا عبدالله بن المعتز فحضرهم ولقبوه المنتصف بالله، وهو لقب اختاره لنفسه"(٤). وقال ابن كثير في حوادث نفس السنة: "فبايعوا عبدالله بن المعتز وخوطب بالخلافة ولقب بالمرتضى بالله، وقال الصولي إنما لقبوه المنتصف بالله"(٥).

ص٩٢ عن الأنواع الثلاثة لكمال الإنسان: "أحدهما بلوغه، وهو وقت إمكان حدوثه مثله"، والعبارة كذلك لدى زاخاو، وصوابها ما ورد في مخطوطة طوب قابو سراي: "حدوث مثله منه" ذلك أن المقصود هو بلوغ الإنسان جنسيًا بحيث يتمكن من إنجاب إنسانٍ مثلِه.

منذ ص٥ وإلى آخر الكتاب وحيثما وردت "أَنّ" عقب: "قال" "يقول" "أقول" "قولهم"، فتحت همزة ألفها، إذ نقرأ في عشرات المواضع وبدايتها في الصفحتين ٥ و ٦: "فأقول أنّ"، وفي ٩٢ "وقالوا أن" وهكذا مما لا نريد الإطالة فيه، والسبب هو أن المحقق الفاضل تابعَ في ذلك طبعة زاخاو التي وقعت في نفس الخطأ. ومعلوم أن الصواب هو كسر الهمزة في أمثال هذه الحالات.

وقد تابع زاخاو أيضًا في إملاء بعض الكلمات، حيث كتب في ص٦١ "المرَءة الحبلى ... بحمل المرَءة"، وقد طبعها زاخاو كذلك.

٤- خالف أحيانًا ما ورد في طبعة زاخاو وكان الصواب هو ما ذكره زاخاو وليس محققنا الفاضل، ففي ص٨ خلال الحديث عن النقاش بين القائلين بتقدم النور على الظلمة في الخلق أو الظلمة على النور "وتُقدّموا النور على الظلمة يقولون بتغليب

الحركة على السكون". والصواب ما ورد لدى زاخاو: "ومقدّمو النور على..."، فضلاً عن عدم وجود مسوغ لوجود ضمة على تاء الفعل في الحالة الأولى.

ص٤٧ "وقد حكي عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه سمع قومًا يَخُضُون في ذكر القرنين...". قلتُ: الصواب ما ورد في طبعة زاخاو: يخوضون. فضلاً عن أن المحقق الفاضل لم يشر في الهامش إلى قراءة زاخاو الصحيحة لهذه الكلمة.

ص٢٥٨ في خبر المقنّع هاشم بن حكيم الثائر على الخلافة العباسية، فإنه "كان أحرق نفسه لما أُحيِيَ به ليتلاشى جسده". قلت الصواب ما ورد لدى زاخاو: لما أحيط به".

ص٣٣٤ "وكذلك كان النبط يفعل ذلك". قلتُ: الصواب ما ورد لدى زاخاو: "القبط"، ذلك أن المؤلف خصص هذا الفصل لشهور الروم وقال في أوله: "قيّد الروم والسريانيون ومن تابعهم أحوالهم الدائرة مع السنة".

وفي نفس الصفحة: "وقد أكثر أصحاب التجارب من الاحتيالات لتقدمة المعرفة بأحوال السنة من هذه الأيام حتى جرجوا إلى جنس العزائم والرُّقى". وذكر في الهامش أن "جرجوا" وردت لدى زاخاو "خرجوا". قلتُ: وهو الصواب، فأصحاب التجارب هؤلاء كانوا يحتالون للتنبؤ بما سيقع في السنة الجديدة بحيث خرجوا من نطاق التجارب ودخلوا في نطاق العزائم والرقى.

ص٣٣٦ خبر القنطرة التي ذكرها الجيهاني وما يعانيه من يعبر عليها من ضيق في التنفس وربما أدى ذلك إلى الموت: "فإن من جاوزها، يدخل في هواء يأخذ بالأنفاس ويثقل اللسان، فيموت فيه كثير من المارين عليه ويَسَمُّو كثير. وأهل تبّت يسمونه جبل السم". وذكر أن "يسمو" وردت في إحدى نسخ الكتاب: "ينجو". قلتُ: وهو الصواب الموافق لما ورد في

(يتبع في ص٤٩١)

نشأة التعليم النظامي بالرياض

(٢)

بقلم: أ. أحمد بن محمد السليمان*

المدرسة الأهلية وكيف أنشئت

في عام ١٣٦٥هـ، زار جلالة الملك عبدالعزيز -رحمه الله- مصر زيارة رسمية، بناءً على دعوة من جلالة ملك مصر السابق الملك فاروق.

(بقية ص ٤٩٠)

طبعة زاخاو أيضًا. والكلمة بشكلها الوارد لدى المحقق الفاضل لا تعطي أي معنى. ذلك بعض ما تمكنا من ملاحظته خلال مطالعة هذه الطبعة.

هذا فضلاً عن الأخطاء الطباعية مما لا يخلو منه كتاب. على أن ما أوردناه لا يقلل من أهمية الجهد الذي بذله المحقق الفاضل في كتاب بهذه الضخامة والتعقيد، وهو جهد يجعله موضع ثناء بكل تأكيد.

الهوامش:

* السيدة زينب، دمشق.

(١) **تاريخ بيهق** (بالفارسية وقد ترجمناه إلى العربية وهو الآن تحت الطبع)، تحقيق أحمد بهمنيار، طهران، مكتبة فروغي، ٢١، ١٥٤.

(٢) **كشف الظنون**، إستانبول، ١٣٦٠هـ/١٩٤١م، ٢٩٢/١.

(٣) **الذريعة**، بيروت، ١٤٠٣هـ، ٣/٥، ١٣٠/٢٦.

(٤) **صلة تاريخ الطبري**، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ٢٠.

(٥) **البداية والنهاية**، تحقيق علي شيري، بيروت، ١٤٠٨هـ، ١٢١/١١.

وقد تمت الزيارة في شهر صفر عام ١٣٦٥هـ، وقد قوبلت هذه الزيارة بحفاوة منقطعة النظير من ملك مصر ومن الحكومة والشعب المصري؛ تجلى ذلك فيما كتبته الصحافة المصرية وما أشارت إليه الصحف العربية الأخرى. وقد شارك الكُتّاب والشعراء على كافة المستويات بالترحيب بهذه الزيارة مشيدين بما سيترتب عليها من آثار ومصالح كبرى للشعبين الكريمين، الشعب السعودي والشعب المصري والشعب العربي عامة. وحينما عاد جلالته من هذه الرحلة الميمونة، هبّ الشعب السعودي فرحًا مسرورًا بعودة جلالته من هذه الرحلة سالمًا معافى. وقد شارك أبناء الرياض في التعبير عن فرحهم وسرورهم بإبداء رغبتهم في إقامة احتفال كبير يقام على شرف جلالته. سارع أبناء الرياض إلى التبرع إلى هذا المشروع الكبير بما يستطيعون. وقد جمعت هذه التبرعات لدى شخصين من وجهاء الرياض وهما عبدالعزيز بن صالح الحقباني وسليمان بن عبدالعزيز مقيرن. وكان الاثنان شريكين في متجر واحد في ذلك الوقت. وقد أخبرني الشيخ عبدالعزيز بن صالح الحقباني أن مجموع ما تم جمعه من هذه التبرعات قد بلغ مائة وسبعين ألف ريال وهو مبلغ كبير في ذلك الوقت. وحين ذهب وفد من أهالي الرياض لدعوة جلالته لهذا الحفل، شكرهم جلالة الملك على شعورهم الطيب، واعتذر لهم عن قبول هذه الدعوة بحجة أن هذا سيفتح بابًا لجميع مناطق المملكة، وأشار عليهم أن يوضع هذا المبلغ في مشروع يعود على أهالي الرياض بالنفع والمصلحة. عندئذ تشاوروا في ذلك ورأوا أن خير مشروع يمكن أن يقام بهذا المبلغ هو بناء مدرسة تفتح أبوابها لطلاب العِلم من سكان الرياض، وتكون صرحًا للتعليم ونشره في هذه البلاد.

وتبرعت بلدية الرياض بمكان الأرض الذي يقع على شارع البطحاء مقابل مصلى العيد السابق من الشرق؛ حينئذ أوكلوا الإشراف على إتمام هذا المشروع وإكماله على واحد من أهل الخبرة في هذا الشأن من أبناء الرياض وهو عبدالله بن سعد بن رصيص، وقام بالإشراف على البناء وإكماله على أحسن ما يكون، وهكذا فتحت هذه المدرسة وسميت بالمدرسة الأهلية. وفي عهد جلالة الملك فيصل -رحمه الله- أطلق عليها المدرسة التذكارية، وهي ثاني مدرسة تفتح بعد المدرسة السعودية الأولى بالمربع، وكان فتحها في أول عام ١٣٦٨هـ، وعيّن لها مدير فاضل من خيرة المربين هو الشيخ عبدالله ابن إبراهيم السليم من أهالي بريدة.

وبعد فتح مدرسة العزيزية بدخنة في أول عام ١٣٦٩هـ، أصبح في الرياض ثلاث مدارس، السعودية في المربع، والأهلية والعزيزية. وقد بدأت كل من المدرستين الأهلية في البطحاء، والعزيزية في دخنة في إقامة نادٍ أدبي في يوم الخميس من كل أسبوع تُلقى فيه الخطب، وتقام فيه تمثيليات صغيرة هادفة. كان هذان الناديان في المدرستين سببًا لإقبال الأهالي من أولياء الطلبة وغيرهم على حضور المدرستين واستماع ما يلقى في الناديين من كلمات وخطب، وما يعرض فيهما من تمثيليات ومساجلات. وكان التنافس شديدًا بين المدرستين في إبراز ما لدى كل واحدة منهما من تفوّق وبروز في تقديم ما يرضي المشاهد ويحوز على رضاه؛ ولكن بما أن المدرسة العزيزية تقع في وسط البلد، كان الإقبال عليها أكثر مما كانت تحظى به المدرسة الأخرى، كما كانت سببًا مباشرًا في الإقبال على الدراسة والالتحاق بهاتين المدرستين، ثم توسع التعليم وفتح مدارس أخرى فيما بعد.

وأذكر أن النادي الأدبي في المدرسة العزيزية كان ملفتًا للأنظار بسبب التمثيليات التي كانت تعرض فيه، ومنها تمثيلية أخذ أصلها من كتاب **بدائع الزهور**، وكانت تتمثل في دعوى بين شخصين مدعٍ ومدعى عليه وقاض يحكم بينهما. وقد قام بدور المدعي الزميل عبدالعزيز بن صالح أبوحيمد، وقام بدور المدعى عليه الزميل عبدالرحمن بن عبدالله الخراشي، كما قمت أنا بدور القاضي.

وحينما حضر القاضي بعمامته الكبيرة وعصاه الغليظة وعباءته السوداء، ضجّ الحضور بالضحك. أما بعد إقامة المدعي لدعواه ونفي المدعى عليه هذه الدعوى وتطاولهما بالكلام وتجاوزهما لحرمة القضاء واندفاعهما بعبارات متلاحقة من التهم فيما بينهما، حينها اكتشف القاضي أنهما متلاعبان، وأن دعواهما غير جدية، فما كان منه إلا أن نهض ورفع عصاه الغليظة وأومأ عليهما وجعلهما يهربان ويلوذان بالفرار، وجعل الحضور كله في ضحك مستمر.

هذه التمثيلية كان لها صدى كبير وشهرة واسعة، حتى أن الذي قام بدور القاضي كلما سار أشارت إليه الأصابع "هذا هو القاضي"، كما جعل بعض المتنافسين ينقلون هذه الواقعة إلى المسؤولين من العلماء ويصورونها على أنها استهزاء بالقضاء والقضاة، ونتج عن ذلك أمر صريح بعدم إقامة مثل هذه التمثيليات بالمدرسة.

معتمد المعارف بنجد

حينما عيّن الأستاذ عبدالرحيم صدّيق مديرًا للمدرسة السعودية بالمربع خلفًا لمديرها السابق الأستاذ عبدالمالك طرابلسي -رحمهما الله- في أول

عام ١٣٦٨هـ، أسند إليه عمل معتمد المعارف بنجد، وهو أول مسؤول يكلف بهذه المهمة حتى يمكنه السعي لافتتاح مدارس أخرى في المناطق المحيطة بالرياض، كالخرج، والشعيب، وضرماء، والمحمل، وسدير، وغيرها، قبل أن يكلف بهذه المهمة شيخنا الشيخ حمد الجاسر -رحمه الله- في أول عام ١٣٦٩هـ الذي نهض بهذه المهمة وقام بها خير قيام، وتمكن خلال سنتين ١٣٦٩هـ و١٣٧٠هـ من فتح المدارس اللازمة فيما يسمى بالمنطقة الوسطى الواقعة ما بين وادي الدواسر جنوبًا والزلفي شمالاً؛ وهذا الانتشار السريع في فتح المدارس الابتدائية في هذه الفترة القصيرة يعتبر طفرة بكل المقاييس في نشر التعليم. وكان ذلك ناتجًا من دعم وتشجيع جلالة الملك المؤسس عبدالعزيز -رحمه الله- وولي عهده في ذلك الوقت الأمير سعود -رحمه الله-.

أول فوج حصل على الشهادة الابتدائية من الرياض

كان أول فوج حصل على الشهادة الابتدائية من الرياض هو الفوج الذي تخرج في أواخر عام ١٣٦٨هـ، ومن أفراد هذا الفوج معالي الأستاذ محمد بن عبدالعزيز بن زرعه، وزير الدولة وعضو مجلس الوزراء السابق، ومعالي الأستاذ محمد بن عبدالعزيز الدريبي، وكيل وزارة الداخلية للشؤون الأمنية السابق، ومعالي الشيخ الدكتور عبدالعزيز بن محمد آل عبدالمنعم، أمين عام هيئة كبار العلماء، وفضيلة الشيخ عبدالله بن عبدالرحمن بن غديان، عضو هيئة كبار العلماء، والأساتذة الكرام عبدالعزيز بن عبدالله الخراشي، ومخلد بن جهز الحربي، وعلي بن عيد العتيبي، والأخيران التحقا بالقوات المسلحة وانتقلا إلى رحمة الله، وغيرهم ممن لا تحضرني أسماؤهم؛

وهذا الفوج تخرج من المدرسة السعودية بالمربع فقط. وبعد تخرجهم توزعوا، فمنهم من التحق بدار التوحيد بالطائف، ومنهم من التحق بمدرسة تحضير البعثات بمكة المكرمة، ومنهم من التحق بالقوات المسلحة، ومنهم من عُيّن معلّمًا بالمدرسة العزيزية بدخنة. أما ثاني فوج تخرج من الرياض فهو الفوج الذي تخرج في أواخر عام ١٣٦٩هـ، وهذا الفوج من ثلاث مدارس الأهلية والعزيزية والسعودية بالمربع، ومنهم كاتب هذه الأسطر وعمران بن محمد العمران، عضو مجلس الشورى السابق، وعلي بن عبدالرحمن المسلم، واللواء سليمان الشبيلي، واللواء سعد بن موينع، وصالح الحميدي، وعبدالكريم بن عبدالله العبدالكريم، وعبدالله بن محمد بن شلهوب، وعبدالعزيز أبوحيمد، وعبدالرحمن الخراشي، وسعد بن صفيان، وصالح الغانم، وعبدالمحسن بن مليحان، والأخيران التحقا بالجيش، وغيرهم. وكان عدد الحاصلين على الشهادة الابتدائية في ذلك العام في أنحاء المملكة قد بلغ ٤٦١ طالبًا فقط، كان ترتيب زميلنا الأستاذ عمران بن محمد العمران الأول في هذه الدفعة، وبمقارنة سريعة بين عدد الطلاب آنذاك وعدد الحاصلين على الشهادة الابتدائية في الوقت الحاضر يتبيّن التطور المذهل في انتشار التعليم في البلاد.

وهكذا بدأ التعليم ينتشر وبدأ فتح المدارس يتوالى في مدن نجد وقراها، كما بدأ عدد الحاصلين على الشهادة الابتدائية يزداد في الرياض، مما جعل فتح مدرسة ثانوية بالرياض أمرًا لا مناص منه. حينئذ بدأ الاستعداد لافتتاح فرع بالرياض لمدرسة تحضير البعثات وهو ما تم في أول عام ١٣٧٠هـ.

فتح فرع لمدرسة تحضير البعثات بالرياض

بعد تخرج الفوج الأول الذي حصل على الشهادة الابتدائية في عام ١٣٦٩هـ من المدارس الثلاث كان لابد أن يتطور التعليم وأن يفتح مجال لمواصلة الدراسة الثانوية بالرياض، فكان أن سعى المسؤولون عن التعليم، وعلى رأسهم الشيخ حمد الجاسر -رحمه الله- إلى فتح فرع لمدرسة تحضير البعثات بالرياض خصص له فصل في المدرسة الأهلية بالبطحاء وبإدارة مدير المدرسة المربي الفاضل الشيخ عبدالله السليم. في أول عام ١٣٧٠هـ، فتحت هذه المدرسة وانتظمت الدراسة فيها وجلب إليها أساتذة أفاضل من مصر أذكر منهم الأستاذ عصام معوّض، مدرس اللغة الإنجليزية، وهو شقيق للإذاعي الشهير جلال معوّض، ومنهم الأستاذ محمد شوشة، مدرس الرياضيات، والأستاذ محمود شلبي، مدرس اللغة العربية، والتحق بهذه المدرسة أفراد ممن حصلوا على الشهادة الابتدائية، ومنهم أحمد السليمان، وعمران بن محمد العمران، وإبراهيم بن عبدالله الحماد، وسعد بن موينع، وسليمان الشبيلي، وعبدالمحسن السديري، وعبدالرحمن أبانمي، ومزيد المزيد، وعبدالرحمن الخراشي، وعلي المسلم، ومحمد الحوشان، ومحمد بن زرعه، الذي كان يسبقنا بسنة، وقد التحق بمدرسة تحضير البعثات بمكة المكرمة، ونجح من السنة الأولى،ولكنه حينما علم بافتتاح فرع لها بالرياض كتب إلي خطابًا طلب مني أن أخبره ببدء الدراسة في هذه المدرسة، فكتبت إليه جوابًا وأخبرته بانتظام الدراسة في هذه المدرسة حينئذ عاد الأستاذ محمد إلى الرياض وأعاد دراسة السنة الأولى مرة أخرى، وغيرهم ممن لا تحضرني

أسماؤهم الآن، وفي هذه المدرسة بدأت الآفاق تتسع نتيجة استيعاب دروس جديدة في العلوم والجبر واللغة الإنجليزية وغيرها من العلوم التي يتلقاها الطلاب لأول مرة، وقد حصلت ذكريات لطيفة في هذه المدرسة منها أنه في ذلك العام زار الرياض عالم أزهري جليل من مشاهير علماء الأزهر، وهو الشيخ محمد حامد الفقي، رئيس جماعة أنصار السنّة المحمدية بمصر، فكان من برنامج زيارته أن يزور أول مدرسة ثانوية تفتح في الرياض. ولما علم مدير المدرسة بعزم هذا العالم الجليل على الزيارة أعد احتفالاً مناسبًا لزيارته تُلقى فيها خطب ترحيبية بمقدمه ومن باب التكريم وإظهار ما وصلت إليه المدرسة من تفوّق علمي كلف أحد الزملاء من الطلاب وهو الزميل عبدالمحسن بن محمد السديري بأن يلقي كلمة ترحيبية قصيرة باللغة الإنجليزية، حيث كان الطالب المذكور ممن سبقت له الدراسة في بيروت. وحينما حان وقت الحفل وأتى الدور على الزميل عبدالمحسن السديري ليلقي هذه الكلمة تقدم وهو فرح مسرور بأن أتيحت له هذه الفرصة، ولكن هذه الفرحة لم تتم؛ فحينما بدأ بإلقاء كلمته نهض أحد المشايخ المرافقين للشيخ محمد حامد الفقي ورفع يده وقال: "اسكت.. اسكت... أعوذ بالله!!" فوقف الزميل العزيز وانصرف ونزل من المنصة وهو يجر أذيال الأسف على ضياع هذه الفرصة. كما أن من الذكريات اللطيفة أن التيار الكهربائي لم يصل إلى مساجد الرياض إلا إلى مسجد واحد فقط وهو (مسجد الشيخ) الواقع في دخنة، فهو الوحيد الذي وصلته الإنارة بالكهرباء مصباح أو مصباحان فقط، فكانت فرصة لنا أن نخرج من منازلنا في الظلام الدامس ونسير بين السكك الضيقة حتى نصل إلى هذا المسجد الشهير

ونتمكن من المذاكرة ومطالعة الدروس على ضوء ذلك المصباح الخافت. وفي إحدى الليالي وبينما كنت أذاكر في هذا المسجد في الكتاب المقرر باللغة الإنجليزية وأذكر أن الكتاب اسمه (جونسن) فلمحني أحد طلبة العلم من المتشددين وصاح بي: "كتاب (انقريزي) في المسجد!!! أعوذ بالله من حالك وحال ما ترضي الله!"، فما كان مني إلا أن لملمت أوراقي وخرجت هاربًا من تقريع وتأنيب ذلك الشخص.

فتح معهد الرياض العلمي

في عام ١٣٧٠هـ، أحس سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم، مفتي الديار السعودية وكبير علمائها، ببعض الأثر، مما جعل جلالة الملك عبد العزيز -رحمه الله- يلح على سماحته بالسفر إلى مصر بقصد العلاج؛ لأن مصر في ذلك الوقت بها أطباء مشهورون؛ ولأن الطب بصفة عامة متقدم في مصر بالنسبة إلى باقي الدول العربية، وكان قصد جلالة الملك -رحمه الله- من سفر الشيخ محمد بن إبراهيم إلى مصر إلى جانب العلاج أن يتصل بعلماء الأزهر وغيرهم من الدعاة والتباحث معهم فيما ينسب إلى دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب من تُهَمٍ باطلة وما يلحق بدعاتها من أساليب دعائية مضللة حتى يتمكن من إزالة هذه الشبهات بالتباحث معهم وبيان حقيقة الدعوة السلفية وما هي عليه من التمسك بالكتاب والسنة وسيرة السلف الصالح، كما كان من أهداف هذه الزيارة الاطلاع على الدراسة بالأزهر والعلوم التي تدرّس فيه ومناهج الدراسة والكتب وغير ذلك، تمهيدًا لفتح معهد جديد في الرياض يساير الدراسة في الأزهر ويأخذ

من مناهجه مع الاحتفاظ بالعقيدة السلفية والاتجاه الصحيح. وحينما وصل الشيخ محمد إلى هناك استقبله علماء الأزهر استقبالاً كريمًا، فكان منــزله هناك يعج بالزوار من أولئك العلماء، وكان مجلسه يحضره الكثير من العلماء الأجلاء أمثال الشيخ عبد المجيد سليم شيخ الجامع الأزهر، والشيخ حسنين مخلوف، مفتي الديار المصرية، والشيخ محمود شلتوت، والشيخ عبد الرحمن تاج، وغيرهم من أعضاء هيئة كبار العلماء في مصر. وكانت هذه المجالس سبيلاً للتعارف والتباحث والانفتاح إلى مدى الآخر من آراء وأفكار وتصحيح ما علق بالأذهان من أخطاء أو تصورات غير صحيحة. وبعد هذه الزيارة حصلت القناعة بضرورة فتح معهد علمي في الرياض تدرس فيه العلوم الشرعية والعربية على غرار ما يدرس في المعاهد المماثلة مع الالتزام بتدريس العقيدة السلفية الصحيحة وتأصيلها في المناهج والدراسة. وكانت هذه الخطوة هدفًا من أهداف جلالة الملك عبد العزيز لنشر العلم في هذه البلاد.

بدأ الاستعداد لافتتاح هذا المعهد خلال عام ١٣٧٠هـ. وحينما أهل عام ١٣٧١هـ كان كل شيء جاهزًا لاستقبال الدراسة، ففتح المعهد في مبنى جديد في غرب دخنة، وهو المكان الذي يشغله معهد إمام الدعوة في الوقت الحاضر، بعد أن أعيد بناؤه، وقد كان هذا المعهد برئاسة الشيخ محمد بن إبراهيم ويقوم بالإدارة نيابة عن سماحة شقيقه فضيلة الشيخ عبداللطيف بن إبراهيم رحمهما الله، كما اختير معتمد المعارف في نجد الباحث المربي الشيخ حمد الجاسر ليكون مساعدًا لمدير المعهد، فكان من

أسباب بروز هذا المعهد وإقبال الطلاب على الالتحاق به، وقد صنفت الدراسة في المعهد على خمس درجات:

١- أول تمهيدي، وتعادل السنة الخامسة ابتدائي.

٢- ثاني تمهيدي، وتعادل السنة السادسة الابتدائي.

٣- أولى ثانوي، وتعادل السنة الأولى متوسط، وكانت الدراسة في ذلك الوقت بعد الابتدائية مرحلة واحدة تسمى المرحلة الثانوية، قبل أن تفصل إلى مرحلتين متوسطة وثانوية.

٤- ثاني ثانوي.

٥- ثالث ثانوي.

وقد شكلت لجنة لتصنيف الطلاب وتوزيعهم على هذه المراحل برئاسة الشيخ عبداللطيف بن إبراهيم، مدير المعهد وعضوية الشيخين عبدالرزاق عفيفي من علماء الأزهر وممن عمل سابقًا بدار التوحيد ومن الشيخ حمد الجاسر، مساعد مدير المعهد. وقد أعدت هذه اللجنة ضوابط لاستقبال الطلاب وتوزيعهم فيما يناسبهم، فقُبل في السنة الأولى تمهيدي من رأوا أن مستواه يناسب المستوى الخامس الابتدائي، وقُبل في السنة ثاني تمهيدي من كان مستواه الدراسي يناسب للسنة السادسة الابتدائي، وقُبل في السنة أولى ثانوي من يحمل الشهادة الابتدائية أو ما يعادلها، وقُبل في السنة الثانية ثانوي من يحمل شهادة أولى ثانوي من دار التوحيد أو من فرع مدرسة تحضير البعثات في الرياض أو ما يعادلها، ومنهم كاتب هذه الأسطر، وقُبل في السنة الثالثة ثانوي كبار طلبة العلم اللذين يدرسون في حلقة الشيخ محمد بن إبراهيم أو من يحمل شهادة ثاني ثانوي من دار التوحيد أو ما يعادلها، وقد

تم تخصيص مرتبات شهرية للطلاب تساوي ٢٦٥ ريالاً لطلاب المرحلة الثانوية، وللمرحلة التمهيدية مبلغ أقل من ذلك، وقد حظي هذا المعهد عند فتحه بترحيب كبير من الأوساط العلمية من داخل المملكة وخارجها، كما أصبح معلمًا بارزًا في العاصمة لا يصل إليها أي ضيف إلا وكان من أول برنامجه أن يزور هذا المعهد ويتجول بين صفوفه ويلمس عن كثب المواد التي تدرس فيه، وقد اجتمع في هذا المعهد نخبة من العلماء قلّ أن يجتمعوا في مكان آخر قدموا إليه من الجامع الأزهر ومن الحرم المدني ومن داخل المملكة كالشيخ العالم الجليل محمد الأمين الشنقيطي، والشيخ عبدالرحمن الأفريقي، وهما من المدرسين في الحرم المدني، والشيخ عبدالعزيز بن عبدالله ابن باز، والشيخ عبدالعزيز الناصر الرشيد، من علماء المملكة، ومن علماء الأزهر، قدم إليه علماء أجلاّء لهم شهرة كبيرة كالشيخ عبدالرزاق عفيفي، والشيخ عبداللطيف سرحان، والشيخ محمد سرحان، والشيخ عبدالسلام سرحان، والشيخ يوسف حسن عمر، والشيخ يوسف عبدالرحمن الضبع، والشيخ محمد نايل، وغيرهم، ومن أئمة الحرم المدني العالم المحدّث الشيخ محمد عبدالرزاق حمزة وغيرهم من فطاحل العلماء. ومما لاحظه طلبة المعهد وأغلبهم متمكنون من دروسهم ولهم دراسة سابقة في حِلق العلماء أن هناك علماء لم يكن لهم ذِكر في السابق؛ وحينما حضروا ذاع صيتهم، واشتهر أمرهم، كالعلاّمة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي الذي بهر الناس بعلمه وتبحره في كل العلوم الشرعية، وبالأخص في تفسير القرآن الكريم، وعلم الأصول، والمنطق، فهو حينما يتحدث فكأنما يغرف من بحر، يذكر الطالب بمشاهير علماء الإسلام في السابق أمثال شيخ الإسلام ابن تيمية، وابن القيّم،

وابن الجوزي، والغزالي، والعز بن عبدالسلام، وغيرهم من علماء الإسلام، كما أن بعض العلماء الذين حضروا إلى هذا المعهد اكتشف الطلاب أنهم أقل كثيرًا من السمعة التي كانوا يتمتعون بها، وكان الطلاب على قدر كبير من الإدراك لدراستهم السابقة على المشايخ، ولأن بعضهم كان مدرِّسًا بالمدارس الابتدائية ثم استقال والتحق بالمعهد، وهؤلاء الطلاب بهذا المستوى كانوا يحرجون بعض المدرسين ويوجهون إليهم أسئلة يتلعثمون فيها أحيانًا، مما جعل أولئك المدرسين ينتبهون ويحضّرون لدروسهم جيدًا استعدادًا لما سيوجه إليهم من أسئلة. وفي هذا المعهد يقام ناد أدبي في نهاية الأسبوع تلقى فيه كلمات على مستوى عال من الجودة يقدم المتحدثين ويعلّق على كلماتهم، ويقدم برنامج النادي مساعد مدير المعهد الشيخ حمد الجاسر، كما يعقب ذلك تعليق من أحد الأساتذة على ما يلقى من كلمات.

وبعد سنتين، فتحت فروع لهذا المعهد في كل من بريدة وعنيزة وشقراء والمجمعة والأحساء وصامطة منطقة جازان، وكان السبب لفتح فرع في هذه المدينة أن الشيخ عبدالله بن محمد القرعاوي -رحمه الله- كان قد سافر إلى تلك المنطقة ونشر التعليم فيها بجهد ذاتي، وفتح مدارس بسيطة نتج عنها انتشار التعليم هناك، وبرز مجموعة من الطلاب. رأى سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم فتح معهد في صامطة لاستقبال أولئك الطلاب من تلامذة الشيخ عبدالله القرعاوي واستيعابهم في هذا المعهد، وعيّن العالم الشيخ حافظ حكمي من تلامذة الشيخ عبدالله القرعاوي مديرًا لهذا المعهد. وقد خصص لطلبة هذه المعاهد خارج الرياض مكافأة مقدارها ٢١٠ ريالات شهريًا.

وكان فتح هذه المعاهد نقلة نوعية في مسيرة التعليم بهذه المناطق، كما كانت مؤشرًا على رفع مستوى المعيشة بين طلابها وتطلعهم وأسرهم إلى حياة طيبة ورفاهية من يسر العيش نتيجة لهذه المكافأة التي تصرف كل طالب.

ثم انتشرت المعاهد في مدن المملكة حتى تجاوزت خمسين معهدًا كما فتحت فروع أخرى في بعض البلاد العربية والإسلامية كرأس الخيمة وموريتانيا وغيرهما، نشأت عن هذه المعاهد جامعة كبرى هي جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بدأت بكليتي الشريعة واللغة العربية، ثم توسعت في فتح الكليات في الرياض وفي مدن المملكة الأخرى حتى غدت هذه الجامعة من أكبر جامعات العالم الإسلامي وأشهرها.

بقي أن تختم هذه الحلقات بالدعاء إلى الله سبحانه وتعالى أن يجزي مؤسس هذه المملكة أحسن الجزاء، فلم يكن مؤسسًا وموحّدًا لهذه البلاد المترامية الأطراف فحسب، ولكنه كان مجاهدًا في نشر العلم، وفتح المدارس والمعاهد على كافة المستويات، فغفر الله له وأسكنه فسيح جناته، وغفر لأبنائه جلالة الملك سعود، وجلالة الملك فيصل، وجلالة الملك خالد، الذين ساروا على نهج المؤسس في هذا المجال، وبارك في عمر خادم الحرمين الشريفين، وولي عهده الأمين، ونائبه الثاني، على ما يقومون به على خطى مؤسس البلاد من نشر العلم وتشجيعه، وفتح المدارس والجامعات والكليات ومراكز البحوث بأنواعها، حتى أصبحت المملكة العربية السعودية بحمد الله على هذا المستوى المشرّف من نشر العلم وازدهاره، والله الموفق.

* الرياض.

بريد العرب

[حول تاريخ جامع الإمام فيصل بن تركي في ضرماء]

ورد إلى **العرب** من السيد إبراهيم بن عيسى بن عبدالله العيسى، من ضرماء، التعليق الآتي:

نشرت مجلة **العرب** في العدد (ج٣و٤، س٣٨، رمضان شوال ١٤٢٣هـ) في بريد **العرب** مقالة سبق نشرها في جريدة الجزيرة يوم الأحد الرابع من جمادى الأولى لعام ١٤٢٣هـ العدد رقم (١٠٨٨١) بقلم اللواء المتقاعد الدكتور يوسف ابن إبراهيم السلوم، بعنوان "تاريخ جامع الإمام فيصل بن تركي في ضرماء"، وقد عقبت عليها بمقالة نشرت بجريدة الجزيرة العدد رقم (١٠٩٠١) يوم السبت الرابع والعشرين من جمادى الأولى لعام ١٤٢٣هـ؛ إلا أنني تفاجأت بإعادة نشرها في مجلة **العرب** وإن كان ذلك يعود لإرسالية الكاتب الكريم للمقالة لتلك الجهتين في وقت واحد قبل إيضاح الملاحظات، وعلى هذا الأساس فإنني أحيل هذا التعقيب بعد توثيق معلوماته بما يتناسب وهذه المجلة التاريخية التي تعتبر مرجعًا يعتدّ به وتصحيحًا للأخطاء الواردة في تلك المقالة.

وإن كنت قد فرحت لقيام الدكتور يوسف بالكتابة عن بلدته وبلدتي ضرماء التي تعاني شح المراجع التي تصف تاريخها العظيم الذي يفخر به جميع أبنائها، كيف لا وهي من أقدم البلدان النجدية، بل من أقدم البلدان التاريخية في الجزيرة العربية، التي تعود إلى ما قبل العصر الجاهلي، وللأسف الشديد لا يوجد عنها سوى كتاب وحيد ويتيم ألّفه الدكتور عبدالعزيز القباني بتكليف من الرئاسة العامة لرعاية الشباب من سلسلة (هذه بلادنا) ويغلب على هذا الكتاب الجانب

الجغرافي بحكم التخصص للكاتب وطبيعة تلك السلسلة؛ و ما عدا ذلك مقالات متفرقة يعجز الباحث أن يجدها، وقد أكل عليها الزمن وشرب، وذلك قبل عصر الإنترنت، بالرغم أن البلدة أنجبت ولا تزال تنجب من رجال الفكر والعلم وأصحاب الشهادات العليا من علية القوم وأصحاب المناصب العليا وأعضاء هيئات التدريس بالمعاهد والكليات والجامعات وفي جميع التخصصات ولا سيما التاريخ والجغرافيا، ومع هذا كله لم تعط حقها البتة.

وقد أجاد الكاتب فيما طرحه، وكما يقال بالمثل: "لا عطر بعد عروس"، إلا أنه توجد لدي بعض الملاحظات الواجب ذكرها تخليدًا وتسجيلاً للتاريخ، حيث الحديث عن التاريخ يجب أن يكون موثّقًا لكونه يبقى للزمن وللأجيال القادمة، وأجزم أن تلك الملاحظات ولا أقول أخطاء لم تكن مقصودة البتة، وهي كما يلي:

أولاً: ورد أن بلدة ضرماء هي قاعدة محافظة ضرماء. وللتصحيح محافظة ضرماء هي قاعدة المنطقة، حوض البطين أو ما يُعرف قديمًا بوادي قرقرى[1]، معناها الحالي تحوّل من معناها السابق نتيجة شح المياه وندرتها، وللضرر الناتج سميت بضرماء وأصبح ينطقها العامة من أهلها (أضرمى)، وأصلها (قرماء) بمعنى قرّ واستقرّ الماء في باطن أرضها جعلها السيل.

ثانيًا: قول الكاتب "إن الإمام تركي بن عبدالله في بداية حملته لاسترداد ملك آبائه وأجداده وتمهيدًا لإعادة الدولة السعودية الثانية" وهذا يوحي للقارئ أن الدولة السعودية الثانية بدأت قبل هذا التاريخ. وللتصحيح أن الإمام الهمام البطل تركي بن عبدالله آل سعود انطلق من بلدة ضرماء مؤسسًا للدولة السعودية الثانية[2]، وقد كانت بلدة ضرماء فأل خير وسعد عليه، وقد عاد إليها وتزوج كما ذكر من

أسرة الفقيه وأنجب ابنه الإمام فيصل بن تركي الذي يحمل اسمه الجامع الكبير بضرماء، الذي تكفّل بإعادة بنائه صاحب السمو الملكي الأمير سلطان بن عبدالعزيز آل سعود، جزاه الله خير الجزاء، ويعتبر الجامع حاليًا أحد المعالم البارزة في المحافظة.

ثالثًا: قول الكاتب: "أن قصر عائلة الفقيه يقع في وسط أحد بساتين النخيل يقال له الفرغ شمال غرب ضرماء"، مخالف للواقع. وللتصحيح، قصر الفرغ المشهور والمشار إليه يعود آنذاك لأسرة آل عيسى وليس للفقهاء، وقد وهب من قِبل أسرة آل عيسى لأسرة آل عبيد وآل فيما بعد لأسرة آل تركي. أما قصر الفقهاء فيقع شمال ضرماء، وهو ما يعرفه جميع سكان البلدة، كما أن قصر الفرغ أشهر من نار على علم، وأستغرب كيف مر ذلك على الكاتب الكريم، الذي أجزم أنه اعتمد على الذاكرة دون الرجوع لمرجع أو راوية من رواة البلدة من كبار السن[٣]، كما أن للقصر (قصر الفرغ) وصاحبه ابن عيسى مواقف معروفة، الأول منها إبان غزو الجيش العثماني لضرماء والتجاء ثلاثة آلاف نفس من أهل ضرماء ومعهم مائة رجل من أهل الدرعية وقد أمنوا على أنفسهم وأعراضهم وأموالهم، وساروا إلى الدرعية، فلما قدموها قام لهم أميرها عبدالله بن سعود[٤]. والموقفان اللذان تما فيه إبان إجلاء الحامية التركية وتأسيس الدولة السعودية الثانية على يد الإمام تركي بن عبدالله آل سعود عندما صفى المناوئين له، وأمده صاحب القصر بالسلاح والعتاد، وأقام فيه شهرًا كاملاً منطلقًا لاستعادة ملك آبائه وأجداده بعد تصفيه أعدائه، وشفائه من إصابته عندما سقط من علوّ أحد المساجد في أحد البساتين في البلدة[٥].

رابعًا: اتضح عدم الاعتماد على المصادر التاريخية الأصيلة التي تعتبر مرجعًا بحق كتاريخ نجد المسمى: **روضة الأفكار والأفهام لمرتادي حال الإمام وتعداد**

غزوات ذوي الإسلام للعلاّمة حسين بن غنام، **وعنوان المجد في تاريخ نجد** للعلاّمة عثمان بن بشر، **وتاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد** للعلاّمة إبراهيم بن عيسى، المكمل لما سبق، واقتصاره على مرجعين لا يعتدّ بهما تاريخيًا حيث تصنف من ضمن المراجع الجغرافية، وبشهادة مؤلفيهما فضلاً عن حداثتهما.

وقبل الختام أود ذكر ما أورده الكاتب الإنجليزي ج.ج. لوريمر في مؤلفه **دليل الخليج** الذي طبع سنة ١٩٠٨م، ما نصه: "ضرماء قرية كبيرة تقع في منطقة العارض من نجد، مشهورة أصلاً بالمقاومة التي أبدتها للقوات المصرية سنة ١٨١٨م، والقسوة التي عوملت بها بعد أن استردتها تلك القوات، ويوجد بسوقها عد من الحوانيت، وتعتمد الزراعة على رفع المياه من الآبار التي يتراوح عمقها بين ١١-١٨ قامة، ويقدّر عدد أشجار النخيل بحوالي ثلاثين ألف نخلة، وتشغل مزارع القمح والشعير والبرسيم والبطيخ والفاكهة مساحات واسعة، وبها حوالي ثلاثمائة منــزل، وعدد سكانها ٢٥٠٠ نسمة، كلهم من المستقرين"أهـــ[٦]، وتلك الإحصائيات منذ حوالي مائة عام، والجميع يعلم بتأثير الهجرات الداخلية على القرى والمدن الصغيرة والنـــزوح باتجاه المدن الكبيرة ولا سيما القريبة من العاصمة. وعلى ذِكر الزراعة فإنتاج الحبوب في ضرماء يضرب به المثل في نجد، فيقال (حب ضرماء على وجهه) لجودته العالية التي لا يضاهيها سواه.

وبلدة ضرماء قديمة جدًا، من قبل البعثة المحمدية، على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التسليم، وقد ورد ذِكرها في الشعر الجاهلي، ولعلّي أستشهد بقول الأعشى:

عرفت اليوم من تيا مقاما بجو أو عرفت لها خياما

فهاجت شوق محزون طروب فأسبل دمعة فيها سجاما

ويوم الخرج من قرماء هاجت صباك حمامة تدعو حماما

والشاعر الشهير جرير لم ينس ذِكرها، وإليكم ما قاله فيها:

سيبلغ حائطـــي (قرماء) عني قـــواف لا أريد بها عتابـــا

وقال الشاعر السليك بن السلكة شعرًا فيها:

كأن حوافـــر النحـــام لمـــا تروح صحبتي أصلاً محار

على قرمـــاء غاليـــة شـــواه كأن بيـــاض غرّته خمار

كما ورد ذِكرها في قصائد الشاعر اليمامي يحيى بن طالب الحنفي وهي مسقط رأسه، وقد بلغت قصائده فيها هارون الرشيد وأعجب بها أشد الإعجاب وأرسل في طلب الشاعر الذي لفظ أنفاسه الأخيرة فيها.

وأشكر لكم إتاحة الفرصة لي، وتقبلوا فائق احترامي وتقديري، والسلام عليكم.

الهوامش:

(١) الحموي، ياقوت، **معجم البلدان**، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٣٩٩هـ، ٣٢٦/٤-٣٣١.

(٢) العجلاني، منير، **الإمام تركي بن عبدالله: بطل نجد ومحررها ومؤسس الدولة السعودية الثانية**، الرياض: دار الشبل للنشر والتوزيع والطباعة، ١٤١٠هـ، ج٥.

(٣) لمزيد من المعلومات يرجى الرجوع للبرنامج الوثائقي "ربوع بلادي" بوزارة الإعلام، التلفزيون السعودي، حلقة مدينة ضرماء، حيث أشار إلى ذلك أحد أعيان البلدة.

(٤) ابن بشر، عثمان، **عنوان المجد في تاريخ نجد**، بيروت: مطبعة صادر، طبعة وزارة المعارف السعودية، ١٣٨٧هـ، ١٩٣/١.

(٥) أمين سعيد، **تاريخ الدولة السعودية**، مطبوعات دارة الملك عبدالعزيز، ص١٣٣، وعبدالرحيم عبدالرحمن، **محمد علي وشبه الجزيرة**، دار الكتاب الجامعي، ص٢٢؛ وعمر الفاخري، **الأخبار النجدية**، تحقيق د. عبدالله البشر، ص١٦٠، العجلاني، منير، مرجع سابق، ص٩٦، ابن بشر، مرجع سابق، ص٢٢٠.

(٦) لوريمور، ج.ج. **دليل الخليج**، بيروت: دار العرب للطباعة والنشر، ١٩٧٠م، ٦٧٠/٢-٦٧٣.

ورد إلى **العرب** من السيد حمود فهد الطريفي، من القصيم، الربيعية، تساؤل حول ما كتبه الأستاذ راشد بن حمدان الأحيوي المسعودي عن تحقيق نسب قبيلة غزية (٢) في العدد ١١ و١٢/س٣٧ عام ١٤٢٣هـ، وأنه تكلم عن الظفير فقال:

"إن الظفير من بني لام هم غير الظفير القبيلة المعروفة".

ويسأل الأخ حمود الطريفي قائلاً:

"أين إذن هؤلاء الظفير، وأين بلادهم الآن، إن لم يكونوا هم نفس قبيلة الظفير؟"

ويقول: "معروف عند عامة علماء النسب وغيرهم أن الظفير هم من بني لام، ولهم معارك في جنوب شرق الأردن؛ مما يدل على أن الظفير الذين بلادهم الظعن فالحجر، وجنوب شرق الأردن امتداد طبيعي لهم".

وذكر أن تاريخ شرقي الأردن وقبائلها يتحدث عن معركة بين الظفير وبني صخر، كما ذكر انهزام الظفير وهجرتهم إلى العراق، وخروج فريق منهم إلى البلقاء، وهم العدوان، القبيلة التي منها نمر بن عدوان، معتمدًا على روكسي بن زائد العزيزي.

وهو يشكر الأخ راشد على اجتهاده وبحثه وتحقيقه.

والسؤال يساق إلى الأستاذ راشد الأحيوي للإجابة عليه.

- **المغانم المطابة في معالم طابة، تأليف مجدالدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي (ت٨١٧هـ) ط١، المدينة المنورة: مركز بحوث ودراسات المدينة المنورة، سنة ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، ٤ أجزاء.**

هذا مصدر قيّم من مصادر تاريخ المدينة المنورة، ألّفه عالم شهير في تاريخنا الثقافي هو العلاّمة محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، صاحب "**القاموس المحيط**" والمؤلفات المفيدة الأخرى. وكتابه هذا يتناول جوانب من تاريخ المدينة النبوية وجغرافيتها وأعلامها، وقد رتّبه على ستة أبواب جعل الباب الأول لما يتعلق بزيارة البلدة الطاهرة، والثاني لتاريخها وذِكر مَن سكنها، والثالث لأسماء المدينة ومعانيها واشتقاق ألفاظها، والرابع للفضائل المأثورة وما روي من الأحاديث والآثار في فضل ألفاظها، والخامس لأماكن المدينة المنورة من مساكن ومساجد ومشاهد ودور ومواضع وجبال ورمال وآطام وآكام وأودية ونحو ذلك. وخصص السادس لذِكر جماعة ممن أدركهم المؤلف أو ذكر له أشياخه المدنيون وغيرهم أنهم أدركوهم بها.

وكان شيخنا حمد الجاسر -رحمه الله- قد أخرج قسم الأماكن من الكتاب سنة ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م، وهو أطول أبواب الكتاب، معتمدًا على نسخة وحيدة في خزانة فيض الله بأستانبول رقم ١٥٢٩ نسخها أحمد بن فهد الهاشمي سنة ٨٦٦هـ. وهذه النسخة الوحيدة هي التي اعتمدت في

التحقيق الحديث للكتاب بكامله. وقام بالتحقيق فريق ألّفه مركز بحوث ودراسات المدينة المنورة وأشرف عليه الدكتور عبدالباسط بدر.

قدّم للكتاب بمقدمات جيّدة من أهمها ترجمة ضافية للفيروزآبادي وحديث عن الكتاب ومكانته ومنهج تحقيقه. ولاشك أن ظهور الكتاب كاملاً بحلته الجديدة يعدّ إضافة للمكتبة التاريخية المدنية. وقد ازدانت هوامشه بتعليقات مفيدة، فخرّجت الأحاديث والآثار، وعُرّف بالأعلام والمعالم، وشُرحت الألفاظ الغريبة، وعُزيت الأشعار ما أمكن إلى قائليها.

وخصص الجزء الرابع لفهارس الكتاب العلمية، وقد شملت الآيات القرآنية والأحاديث والآثار والأبيات الشعرية والأماكن والأعلام والكتب. ووُعد –في المقدمة– بفهرس للموضوعات وآخر للمصادر لكن هذا الجزء خلا منهما.

نشر الكتاب مركز بحوث المدينة المنورة، وكان الطبع على نفقة السيد حبيب محمود أحمد –رحمه الله– الذي جعله وقفًا لله تعالى، فجزاه الله خيرًا، وأكثر من أمثاله.

أ. م. ض.

- **ديوان ابن المقرب العيوني وشرحه، تحقيق الدكتور أحمد موسى الخطيب، الكويت: مؤسسة جائزة الملك سعود البابطين للإبداع الشعري، سنة ٢٠٠٢م، ٢ ج.**

صدر هذا العام ٢٠٠٢م عن مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري تحقيق جديد لديوان ابن المقرب، وهو الإصدار السادس لهذا الديوان بعد طبعات مكة والهند (مرتين) ودمشق والقاهرة. وتتميز هذه

النشرة الجديدة باستقصاء كل نسخ الديوان المتاحة، وكذلك مختاراته في أنحاء العالم؛ إذ اعتمد المحقق على سبع وعشرين مخطوطة وأربع مختارات للديوان.

يقع الديوان في جزأين كبيرين، وعدد صفحاته ١٣٩٢ صفحة. وقد حقق المحقق القصائد كما وجدها في مخطوطاتها، لذلك نجد أغلبها مشروحًا وقليلها غفلاً من الشرح.

ثم بعد ذلك أتبع الديوان بملحقين خاصين بالزيادات غير الموجودة في النسخ المخطوطة، ثم ختم الكتاب بثمانية فهارس وهي فهارس لقصائد ابن المقرب، ثم لقصائد غير ابن المقرب، ثم للأعلام، ثم للقبائل والأمم، ثم للأماكن والبلدان والمياه، ثم للأيام والحرب، ثم للمصادر والمراجع، وأخيرًا فهرس المحتويات.

تميزت هذه الطبعة عن سواها باشتمالها على كل ما أمكن الوصول إليه من شِعر ابن المقرب، كما تميزت بجمال الإخراج وجودة الطباعة، وهذا كله مما يستحقه هذا الشاعر الأحسائي؛ فالشكر موصول للمحقق والناشر جزاهما الله خيرًا على القيام بنشر هذا الديوان المظلوم في النشرات السابقة ماعدا نشرة المرحوم الدكتور عبدالفتاح الحلو؛ فقد بذل فيها جهدًا لا ينبغي إغفاله، بل ينبغي شكره عليه.

ع. ن. م.

إهداءات إلى مكتبة العرب

أولاً: الكتب

- الإعلام في المملكة العربية السعودية، د. عبدالرحمن الشبيلي، ط١، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.
- إعلام وأعلام، د. عبدالرحمن الشبيلي، ط١، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.
- نحو إعلام أفضل، د. عبدالرحمن بن صالح الشبيلي، ط١، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.
- مقالات ودراسات مهداة إلى الدكتور صلاح الدين المنجد، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، لندن، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، منشورات المؤسسة نفسها، رقم ٧٠..
- قصص القرآن، جار الله الخطيب، منشورات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض.
- قصيدة عنوان الحكم، أبو الفتح علي بن محمد بن الحسين البستي، ط٢، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م، مكتب المطبوعات الإسلامية، جدة.
- قول على قول، حسن سعيد الكرمي، ط٥، ١٩٨١م/١٤٠١هـ، دار لبنان للطباعة والنشر، بيروت.
- القيم السلوكية، أ.د. محمود عطا حسين عقل، مكتبة التربية العربي لدول الخليج، الرياض، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.
- ظاهرة العولمة: رؤية نقدية، د. بركات محمد مراد، العدد ٨٦، ذو القعدة ١٤٢٢هـ، السنة ٢١.
- لطائف المعارف، أبو منصور الثعالبي، دار الطلائع، القاهرة.
- مجموع القصائد المفيدة، مكتبة الرياض الحديثة.
- المحاسن والمساوئ، الشيخ إبراهيم بن محمد البيهقي، ط٢، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م، دار إحياء العلوم، بيروت.
- محاولات التدخل الروسي في الخليج العربي، ١٢٩٧-١٣٢٥هـ/١٨٨٠-١٩٠٧م، د. نادية وليد الدوسري، دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٢٢هـ.
- مخاليف اليمن، القاضي إسماعيل بن علي الأكوع، إصدار المجمع الثقافي بأبوظبي، ١٤٢٣ هـ/٢٠٠٢م.
- المختار من مسابقات نادي القصيم الأدبي ببريدة (المجموعة الأولى) ، المجموعة الأولى، ط١، ١٤٠٥هـ، الناشر: نادي القصيم الأدبي ببريدة.

ثانيًا: المجلات

- الجسرة الثقافية، العدد ١٣، صيف ٢٠٠٢م، مدير التحرير: د. مراد عبدالرحمن مبروك، نادي الجسرة الثقافي الاجتماعي، الدوحة.
- الخفجي، العدد ٢، السنة ٣٢، محرم ١٤٢٣هـ/مارس-أبريل ٢٠٠٢م، رئيس التحرير: حسن المطرودي.
- الخفجي، العدد ٣، السنة ٣٢، صفر ١٤٢٣هـ/ أبريل-مايو ٢٠٠٢م، رئيس التحرير: حسن المطرودي.
- الخفجي، العدد ٤، السنة ٣٢، ربيع الأول ١٤٢٣هـ/ مايو-يونيو ٢٠٠٢م، رئيس التحرير: حسن المطرودي.
- مجلة البحوث الإسلامية، العدد ٦٤، رجب-شعبان-رمضان-شوال ١٤٢٢هـ، رئيس التحرير: د. محمد بن سعد الشويعر.
- المجلة العربية، العدد ٣٠٣، السنة ٢٧، ربيع الآخر ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، رئيس التحرير: حمد القاضي.
- المستقبل الإسلامي، العدد ١٣٣، جمادى الأولى ١٤٢٣هـ/أغسطس ٢٠٠٢م، رئيس التحرير: د. مانع بن حماد الجهني.
- الضاد، العدد ٣، آذار ٢٠٠٢م، رئيس التحرير: رياض عبدالله حلاق، دار الضاد للطباعة والنشر، حلب.
- الضاد، العدد ٤، نيسان ٢٠٠٢م، رئيس التحرير: رياض عبدالله حلاق، دار الضاد للطباعة والنشر، حلب.
- عالم الكتب، المجلد ٢٣، العدد ٥-٦، الربيعان-الجماديان ١٤٢٣هـ[مايو-يونيو/يوليو-أغسطس ٢٠٠٢م]، رئيس التحرير: يحيى محمود بن جنيد الساعاتي.
- العالمية، العدد ١٤٤، السنة ١٤، ربيع أول ١٤٢٣هـ/يونيو ٢٠٠٢م، رئيس التحرير: يوسف محمد عبدالرحمن.
- العالمية، العدد ١٤٦، السنة ١٤، جمادى الأولى ١٤٢٣هـ/أغسطس ٢٠٠٢م، رئيس التحرير: يوسف محمد عبدالرحمن.

إعلان

ندوة

«الشيخ حمد الجاسر وجهوده العلمية»

تقيم جامعة الملك سعود ندوة عن (الشيخ حمد الجاسر وجهوده العلمية) وذلك خلال الفصل الدراسي الثاني من العام الجامعي الحالي ١٤٢٣/١٤٢٤هـ.

هدف الندوة:

تهدف الندوة إلى دراسة الإنتاج العلمي للشيخ حمد الجاسر دراسة تحليلية نقدية إلى جانب تقويم إسهاماته في ثقافة الجزيرة العربية على المستويات العلمية المتنوعة.

محاور الندوة:

جهود الشيخ حمد الجاسر في مجال التاريخ، والجغرافيا، والآثار، وقضايا المجتمع، ومجال اللغة العربية وآدابها، وتحقيق التراث، ومجال الصحافة.

موعد الندوة ومكانها:

تقام الندوة يومي الثلاثاء والأربعاء ٢٠ ـ ٢١ صفر للعام الجامعي الحالي ١٤٢٣/١٤٢٤هـ في كلية الآداب (المبنى ١٦) بجامعة الملك سعود بالرياض.